الفلسفة الوضعية عند أوغست كونت

وأسباب ظهورها

إعداد الدكتورة:

إلهام محمد فتحي محمد شاهين

مدرس العقيدة والفلسفة

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بجامعة الأزهر بالقاهرة

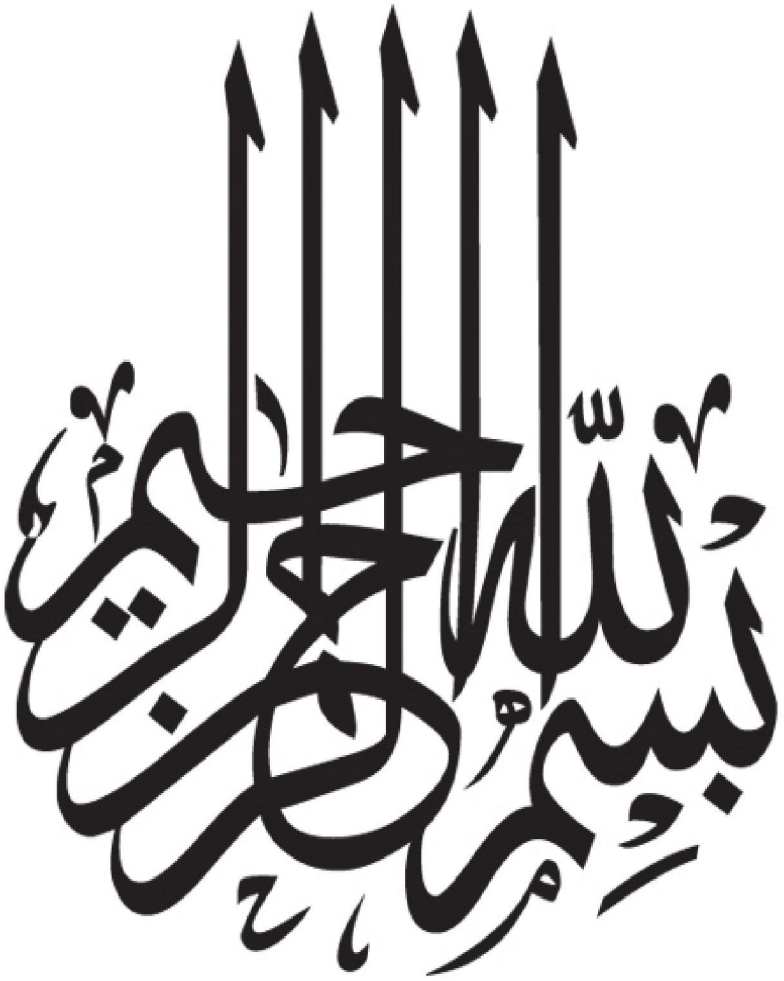

ملخص البحث

تعد الفلسفة الوضعية قسما من أقسام (نظرية المعرفة)"ابستمولوجيا" وهي نشأت في القرن الثامن عشر كنقيض لعلوم اللاهوت والميتافيزيقا الذين يعتمدان المعرفة الاعتقادية غير المبرهنة .

وتستخدم الفلسفة الوضعية في العلوم الاجتماعية المنهج الاستقرائي –التجربة – المستخدم في العلوم الطبيعية، ومن ثم جاءت المدرسة الوضعية ثورة عارمة على الفلسفة الميتافيزيقة ورأت أن البحث لا ينبغي أن يتعدى دراسة الواقع المحسوس دراسة قائمة على التجربة والاستقراء.

ولهذا الاتجاه جذور فكرية نجدها في التراث اليوناني لدى الذريين والسوفسطائيين وسبق أن أشار إليها ونادى بها بوضوح فرنسيس بيكون ، وقد ظهرت الفلسفة الوضعية بوضوح في الفكر الغربي كنتيجة لأسباب وظروف مرت بها أوربا ومنها التسلط الكنسي، وتدخل العنصر اليهودي الصهيوني، واتصال الأوربيين بالحضارة الإسلامية، وقيام الثورة الصناعية في أوربا، وظهور العديد من الفلسفات التي تقوم على الإلحاد المطلق وإنكار الميتافيزيقا وعدم تقبل أي سلطان على الفكر الإنساني سوى سلطان العقل والحس والتجربة والمنفعة المادية وساد اعتقاد في المجتمع الغربي بأن لدى العلم الإجابة على كل سؤال وبأن الإنسان يمكنه السيطرة على الطبيعة بالعلم والمعرفة وسمي ذلك العصر بالعصر الإنساني أو عصر التنوير أي عصر الإيمان الفلسفي بإله ليس له وحي وليس بخالق للعالم يتفق مع تحكيم وسيادة العقل على كل اتجاهات الحياة والحس المصدر الوحيد للمعرفة .

وبذلك نجد أن الفلسفة الواقعية والفلسفة الوضعية مسميان لمعنى واحد وهو جملة القوانين المكتسبة بالتجربة وليست قوانين الوجود وأشهر القائلين بالفلسفة الوضعية هو أوغست كونت الذي أخرج عملا متكاملا يشرح فيه أصول المذهب ويطبقه على العلوم المختلفة مستمدا علمه وفلسفته مما درسه عن فرنسيس بيكون وروجر بيكون ، ومما تأثر به وتلقاه عن

سان سيمون وصاغ أهم أفكار الفلسفة الوضعية في مؤلفيه " مذهب في السياسة الوضعية "و"دروس في الفلسفة الوضعية "،و يرى كونت أن مظاهر الفوضى الأخلاقية والاجتماعية ترجع إلى الفوضى العقلية ويرجع الفوضى العقلية إلى استمرار سيادة الاتجاهات الدينية من ناحية والفلسفية من ناحية أخرى.

في حين أن هذين الاتجاهين يمثلان مراحل سابقة مرت بها الإنسانية –وأنه يجب أن تنتقل إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الفكر الوضعي.ففي هذه المرحلة الأخيرة يمكن مواجهة مشكلات المجتمع من خلال العلم.

هكذا لا يتطلب مواجهة مشكلات المجتمع تغيير الأساس الاقتصادي للمجتمع وإنما تعتبر مناهج التفكير والقضاء على الفوضى العقلية وتحقيق الانسجام والوحدة الفكرية ضمانا لاستمراره وتقدمه. ومن أجل تحقيق هذا الهدف دعا إلى إنشاء علم جديد يدرس المجتمع دراسة علمية تستند إلى المنهج الوضعي. وقد طبق كونت هذا المنهج على معظم المشاكل التي حفل بها عصره

كما لاحظ أن الدين يمثل من الجانب السياسي الأساس الذي تقوم عليه سلطة الكهنة والملوك حيث يستمدون سلطاتهم لدى الجماعة من الدين الذي تدين به الجماعة

وانتهي من ذلك إلي أن العالم لا يمكن خلاصه وانتشاله إلا بدين جديد يغذي قلوب الناس محبة الغير الواهنة ويقويها بتمجيد الإنسانية واتخاذها دينا جديدا وموضوعًا للعبادة، وقد أمضي كونت أيام كهولته في ابتكار نظام معقد من القساوسة والطقوس الدينية والصلوات لهذا الدين الجديد ، دين الإنسانية واقترح تقويما جديدا استبدل فيه أسماء الآلهة الوثنية وقديسي العصور الوسطي بأبطال الرقي والتقدم الإنساني .

الكلمات المفتاحية: الفلسفة الوضعية – أوغست كونت– نظرية المعرفة –علم اللاهوت – مبادئ الهيلينية– المذهب المادي– المذهب الروحي.

The positivist philosophy of Auguste Comte and the reasons for its emergence

By: Prof:E lham Mohamed Fathy Mohamed Shaheen

A teacher of faith and philosophy

At the Faculty of Islamic and Arabic Studies

For girls at Al Azhar University in Cairo

E.MAIL: E lham.mohamed@azhar.edu.eg

مجلة كلية الدراسات الإسلامية

Abstract

The philosophy of positivism is a section of the "epistemology" that originated in the eighteenth century as an antidote to theology and metaphysics, which rely on unexplained empirical knowledge.

The philosophy of positivism in social sciences uses the inductive method - experiment - used in the natural sciences, and then the status school revolutionized metaphysical philosophy and thought that research should not go beyond the study of concrete reality study based on experience and extrapolation.

This trend has its roots in the Greek heritage of the Athenians and the Soufstaïans and has already been referred to and clearly advocated by Francis Bacon. The philosophy of positivism has clearly emerged in Western thought as a result of the causes and circumstances experienced by Europe, including ecclesiastical domination, the intervention of the Jewish Zionist element, the connection of the Europeans to Islamic civilization, The industrial revolution in Europe, and the emergence of many philosophies based on absolute atheism and the denial of metaphysics and the acceptance of any authority over human thought only the power of reason and sense and experience and material benefit was believed in Western society that science has to answer Every question and that man can control the nature of science and knowledge and called the era of the human era or the Enlightenment, the era of philosophical faith in God has no revelation and not the creator of the world agrees with the arbitration and the sovereignty of mind on all aspects of life and sense the only source of knowledge.

Thus, realist philosophy and positivist philosophy belong to one meaning: the laws of experience and not the laws of existence. The most famous philosophers of the philosophy of positivism are Auguste Conte, who produced an integrated work explaining the origins of the doctrine and applying it to the various sciences and deriving his knowledge and philosophy from Francis Bacon and Roger Bacon. He received and received from Saint Simon and formulated the most important ideas of the philosophy of positivism in his authors "doctrine in positivist politics" and "lessons in positivist philosophy." Conte sees that the manifestations of moral and social chaos are due to mental disorder, Religious t on the one hand and on the other hand, philosophical.

While these two trends represent the previous phases of humanity - and that it must move to a new stage is the stage of positive thought. In this last stage can face the problems of society through science.

Thus, facing the problems of society does not require changing the economic basis of the society. Rather, it considers the methods of thinking and eliminating mental disorder, and achieving harmony and intellectual unity to ensure its continuity and progress. In order to achieve this goal, he called for the establishment of a new science that examines the scientific study based on the positive approach. This approach has been applied to most of the problems of his time

He also noted that religion represents the political aspect of the power of the priests and kings, as they derive their authority from the religion of the community

And ended with the fact that the world can not be saved and extracted only by a new religion that nourishes the hearts of people, the love of the weak and strengthens them by glorifying humanity and adopting a new religion and a subject of worship. He spent his days creating a complex system of priests, religious rites and prayers for this new religion. In which the names of pagan gods and medieval saints were replaced by heroes of human progress and progress.

Keywords: positivist philosophy - Auguste Count - epistemology - theology - principles of Hellenism - materialism - spiritualism

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بدأت الحياة الإنسانية على الأرض بارتباط كامل وامتزاج تام بين المادة والروح، وبين عالم الغيبيات والمحسوسات.

ثم ابتعد الإنسان شيئا فشيئا عن عالم الروح لانشغاله بالمادة، إلا أنه لم يلبث أن عاد ليبحث عن ذلك الطريق الخفي، وأراد أن يستكشف عالم الغيبيات بعقله وحواسه دون أن تكون لديه الأدوات التي تعينه على مشاق البحث في ذلك المنزلق الخطير، فلم يستطع بالطبع أن يصل إلى الحقيقة، وقصر به البحث إلى فرضية تقول: إن هذا الكون مادي، لا صانع له، وإنه وجد صدفة، وإنه ممتد بدون نهاية، وإن الموت هو نهاية كل حي.

وهنا تعارض تماما مع ما جاءت به الأديان المنزلة، وقد ظهر على أثر ذلك أن اعتنق البعض مبادئ الهيلينية الغربية – وتعني المبادئ اليونانية البحتة التي سادت مرحلتي النشأة والنضج والازدهار العقلي في الحضارة الإغريقية – والتي اعتمدت على العقل وحده، واعتنق البعض الغنوصية الشرقية – وتعني العرفانية أو المعرفية وتعبّر عن تذوق المعارف مباشرة أو التوصل بنوع من الكشف والإلهام إلى المعارف العليا – والتي اعتمدت على تعرف الوجدان وحده.

حتى أتباع الديانات الكبرى، اعتنق كل منهم مذهبًا بعينه، فاعتنق أتباع الديانة اليهودية المذهب المادي، بينما اعتنق أتباع الديانة النصرانية المذهب الروحي.

وظل الجميع في تخبط إلى أن جاء الإسلام فكشف عن وجه الحق في هذه القضية.

وحدد (القرآن الكريم) مسائل ما بعد الطبيعة (عالم الغيب) تحديدا خاصا وفصل القول فيها، وأغني المسلم عن البحث فيها، ودعاه إلى التفكير في خلق الله من الكون، ونهاه عن البحث في ذات الله تعالى التي يستحيل عليه الوصول إلى حقيقتها، وهو ما أسماه العلماء " البحث عن الخصائص دون البحث عن الماهية " وقد أمد الإسلام المسلمين بصورة كاملة عن عالم الغيب كله، وقرر في نفس الوقت قصور العقل الإنساني عن التوصل إلى شيء في هذا المجال، ونهي أشد النهي عن تجاوز هذه المعالم.

ولقد استطاع المسلمون في ظل هذه العقيدة أن يعملوا ويتفرغوا لأمور الحياة والتقدم فيها؛ مطمئنين إلى العالم الآخر، فلم يشغلوا أنفسهم بالبحث في علاته أو ماهياته.

ووفر لهم حكّامهم الوسائل والإمكانات اللازمة التي تيسر لهم سبل التقدم العلمي المنشود، وعملوا بجد واجتهاد في ترجمة العلوم وتقديم المخترعات في شتي المجالات، مطمئنين إلى الجزاء الأوفى في عالم الغيب إن هم عملوا لإعمار الحياة بما يرضي الله.

ومن ثم تسنى لهم أن يعملوا العقل فيما ينفعهم وينفع الإنسانية كلها فكان أن اكتشفوا المنهج التجريبي وأن يجعلوه نبراسا لهم في إعمار الحياة والتقدم بخطي ثابتة؛ ولذا ازدهرت الدولة الإسلامية واتسعت فتوحاتها وتقدمت في شتي العلوم والفنون والمجالات.

في تلك الآونة كانت أوربا تعيش في ظلام دامس تحت وطأة تسلط رجال الكنيسة

على العلم والفكر والدين؛ وذلك أدي بذوي العقول والفكر إلى البحث عن بديل يمنح العقول الحرية ويسمح بالتقدم للإنسانية ولذا ظهر كثير من الفلسفات البشرية والتي حاولت تقديم التفسيرات العقلية لكل الظواهر الكونية، والقوانين التي تضمن التفوق والتقدم ومن تلك الفلسفات كانت (الفلسفة الوضعية) والتي انتشرت في أوربا انتشارا كبيرا في عصر النهضة والعصر الحديث

واستطاعت هذه الفلسفة التأثير على عدد كبير من المفكرين والأدباء الغربيين أمثال: "تين" و"موراس" و"زولا" و"غوبينو" و"رينان" و"لوبير" وغيرهم، وأن تصبح الفلسفة الرسمية في ظل حكم الإمبراطورية الثانية في فرنسا ودخلت إلى بلادنا عن طريق تلامذة الفلاسفة الغربيين الذين تلقوا تعليمهم من خلال البعثات العلمية إلى أوربا ولم تنته الفلسفة الوضعية

بل امتدت آثارها إلى وقتنا المعاصر في كثير من جوانب حياتنا، وإن كانت غير مصرح باسمها إلا أنها انتشرت بمضمونها وأفكارها والأهم تطبيقاتها العملية في معظم مجالاتنا الحياتية؛ ولذا خصصتها بالبحث والدراسة.

الفلسفة الوضعية

التعريف:

الفلسفة الوضعية (بالإنجليزية: Positivism)

تعد الفلسفة الوضعية قسمًا من أقسام «نظرية المعرفة» (أبستمولوجيا). وهي نشأت كنقيض لعلوم اللاهوت والميتافيزيقا الذين يعتمدان المعرفة الاعتقادية غير المبرهنة

وهي إحدى فلسفات العلوم التي تستند إلى رأي يقول: إنه في مجال العلوم الاجتماعية، كما في العلوم الطبيعية، فإن المعرفة الحقيقية هي المعرفة والبيانات المستمدة من التجربة الحسية، والمعالجات المنطقية والرياضية لمثل هذه البيانات؛ والتي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية وخصائصها والعلاقات بينهم والتي يمكن التحقق منها من خلال الأبحاث والأدلة التجريبية.

مصطلح الوضعية: أول من قال به الفيلسوف والعالم الاجتماعي الفرنسي الشهير **أوغست كونت**[1] وقد وضع هذا المصطلح في القرن التاسع عشر وهو يعتقد بأن العالم سيصل إلى مرحلة من الفكر والثقافة عندها، سوف يتم نفي كل القضايا الدينية والفلسفية وسوف تبقي القضايا العلمية التي تم إثباتها بالحس والخبرة الحسية أو بالأدلة القطعية والوضعية (positive). وفي ذلك العصر سوف يُمحىَ الدين من ساحة المجتمعات البشرية[2].

---

(١) أوغست كونت (بالفرنسية: (Auguste Comte)١٧ يناير ١٧٩٨ – ٥ سبتمبر ١٨٥٧) عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، **صاحب أول عدد من المجلدات في الفلسفة الوضعية معجم الفلاسفة /جورج طرابيشي ص٥٤٠- ٥٤٤ ط ٣ يوليو ٢٠٠٦ دار الطليعة بيروت**

(٢) شـــارلين هس-بيبر، وباتريشـــيا ليفي، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ص٥٧، ترجمة هناء الجوهري، القاهرة: المركز القومي للترجمة

منهج الفلسفة الوضعية

تستخدم الفلسفة الوضعية المنهج الاستقرائي – التجربة – المستخدم في العلوم الطبيعية، وهو المنهج الذي أرادت هذه المدرسة الوضعية جعله منهجًا للعلوم الاجتماعية كلها؛ ذلك أن الاكتشافات الباهرة التي حققها علم الطبيعة في العصر الحديث من الإمداد بالأدوات التي تزيد من رفاهية الإنسانية، جعل أتباع هذه المدرسة ينشدون تطبيق المنهج التجريبي المستخدم في العلوم الطبيعية في كل مجالات الفلسفة وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم الإنسانية الأخرى؛ عساها أن تحقق ما أحرزته العلوم الطبيعية من نجاح وازدهار[1] ومن ثم جاءت هذه المدرسة ثورة عارمة على الفلسفة الميتافزيقية التي نادت بوجود مبادئ قبلية سابقة على التجربة الحسية، ولذلك فإنها أنكرت كل تفكير ميتافزيقي، واستبعدت البحث في العلل البعيدة ورأت أن البحث لا ينبغي أن يتعدى دراسة الواقع المحسوس دراسة قائمة على التجربة والاستقراء. ومن ثم كانت الحقائق-عند أصحاب هذا الاتجاه الفلسفي- حقائق جزئية نسبية متغيرة، وليست كلية مطلقة كما زعم أصحاب الاتجاهات العقلية من الفلاسفة.

فالاتجاه الوضعي هو نموذج منهجي يسعي إلى الاستناد إلى المشاهدات والتجريب؛ للوصول إلى القوانين العامة التي تخضع لها الظواهر، ويسعي إلى أن يصير التفسير في علم الاجتماع محاكيا لنماذج التفسير في العلوم المضبوطة مستخدما أساليبها المنهجية نفسها في الوصول إلى هذا التفسير، رافضا كل الاتجاهات والافتراضات والأفكار التي تتعدي حدود الأسلوب العلمي.

(١) سعد عبد العزيز حباتر، نماذج من الفكر المعاصر، صـ: ٤٤، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠١١

جذور الفلسفة الوضعية

في الحقيقة أن الوضعية كاتجاه فكري قد صيغت وتحددت معالمها في القرن الثامن عشر ولكن هذا لا يمنع أن لها جذورها الضاربة في أغوار التراث الفكري لدي الذريين[١][٢] والسفسطائيين [٣] وفرنسيس بيكون[٤].

وهذا الاتجاه الفكري يقيم معالجاته وتفسيراته للعالم على التجربة بوجه خاص وذلك ما اتفق عليه بين المهتمين بتحليل الاتجاه الوضعي والتطورات التي مر بها في النظرية السوسيولوجية أي النظرية الاجتماعية.

فقد شاع في العالم اليوناني القديم اتجاهان هما الذريون والسفسطائيون، وإليهما تمتد جذور الوضعية.

---

(١) الفلاسفة الذريون ظهروا في عصر ما قبل سقراط ٣٧٠ ق. م يعتقدون أن كل شيء مكون من ذرات «atomos»غير قابلة للانقسام يفصل بينها فراغ وأن هذه الذرات أزلية يستحيل فناؤها وستظل إلي الأبد في حركة دائمة موسوعة أكسفورد في علم الاجتماع، تحرير جوردن مارشال ج١ المجلس الأعلى للثقافة (مصر) ترجمة في ٣ أجزاء المشروع القومي للترجمة

(٢) انظر تاريخ الفلسفة الغربية برتراند راسل ترجمة زكي نجيب محمود.

(٣) والسفسطائية حركة فلسفية غير متكاملة ضمن نظام، ظهرت في القرن الخامس قبل الميلادي، **المرجع السابق.**

(٤) فرانسيس بيكون (بالإنجليزية:Francis Bacon) (م ٢٢ يناير ١٥٦١ - ٩ أبريل ١٦٢٦) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، وضع دائرة معارف واسعة بنيت على أساس الملاحظة التجريبية **والمنهج الاستقرائي معجم الفلاسفة جورج طرابيشي ص٢٢٦-٢٢٨.**

فديمُقريطس[1] مثلا يجد في مذهب الذرة أو الجزء الذي لا يتجزأ حلاً وسطا بين التغير والثبات، وذلك لاقتناعه بأن جميع التغيرات التي تحدث في الطبيعة يمكن إرجاعها إلى عمليات الالتحام والانفصال الدائمة للذرات، والواقع أن الأفكار التي نادي بها ديمُقريطس وواجه بها مفكري عصره تظهر بوضوح ارتباطها بالوضعية الحديثة.

أما السفسطائيون فقد رفضوا البحث الميتافيزيقي وأقاموا كل دراساتهم على التجربة وحاولوا أن يجمعوا من خلالها أكبر قدر ممكن من المعرفة عن كل شؤون الحياة وكان منهجهم في هذا كله واقعيا استقرائيا، وحاولت السفسطائية أن تجعل تحليلها يلتزم التجربة ذاتها وأظهرت ميلا لمد منهجها ليستخدم في حل مشاكل الحياة اليومية أو الاجتماعية.

ومن المألوف وعند تتبع الوضعية الجديدة أن تبدأ من كتابات فرنسيس بيكون والتي حاول فيها أن يدرس نقائض العلوم ومبلغ ما وصلت إليه في بحوثها كما درس أرستقراطية العلم الحديث التي أحلت سيادة الإنسان على الطبيعة محل سيادة الإنسان على الإنسان.

أسباب وملابسات ظهور الفلسفة الوضعية

كما علمنا من قبل فإن الوضعية لم تكن وليدة القرن الثامن عشر، وإنما ظهرت في العصور السابقة له عند اليونان وغيرهم، ولكن ما الذي جعلها تطفو وبقوة على

(١) ديمقريطس الأبديري فيلسوف يوناني ولد في أبديرة، تراقيا (٤٦٠ ق. م - ٣٧٠ ق. م). كان أحد الفلاسفة المؤثرين في عصر ماقبل سقراط وكان تلميذا للفيلسوف ليوكيبوس، الذي صاغ النظرية الذرية للكون معجم الفلاسفة / جورج طرابيشي ص٣٠٧-٣٠٨

سطح المجتمع الأوربي في هذا الوقت بالذات، تري هل كانت هناك أسباب أو ظروف دعت لهذا التغيير في الفكر الغربي مما جعله يرفض بل ويصر على رفض اللاهوتية والميتافيزيقية ويجعل من العقل وحده هو المعيار وهو المقدس.

يقول أوغست كونت " تقدم الفلسفة الوضعية الأساس المتين الوحيد لإعادة التنظيم الاجتماعي الذي يجب أن يحل محل الجو النقدي الذي تعيش فيه أغلب الدول المتحضرة الآن " ويتضح من خلال رؤية أوغست كونت للفلسفة الوضعية أن هناك ظروفا تاريخية كانت من العوامل التي ساهمت في ظهور الفلسفة الوضعية؛ بل لتبلور علم الاجتماع الأكاديمي بصفة عامة، حيث تأثر علم الاجتماع الأكاديمي في نشأته بأحداث بالغة الأهمية، من مناخ فكري وفلسفي مما أدي لظهور الفلسفة الوضعية إلى سطح الفكر الإنساني مرة أخري وهي:

أ- **التسلط الكنسي:**

أصدر الإمبراطور قسطنطين(٢٨٥-٣٣٧ م) مرسوما عام ٣١٣م وأقر مبدأ التسامح مع المسيحية وذلك بأن جعل من المسيحية الديانة الرسمية للدولة الرومانية، وأمر بحفظ يوم الأحد، وصادر المعابد الوثنية وحوّل الكثير منها إلى كنائس، وأعفي رجال الدين المسيحي من الضرائب، كما تدخّل في المشاكل الكنسية. وهو الذي دعا إلى عقد أول مجمع مسكوني في العالم في نيقية عام ٣٢٥م.

ومنذ ذلك الوقت بدأت تعلو شوكة رجال الدين المسيحي حتى أصبحت سلطتهم تعلو على سلطة وكلمة الملك وأصبح لهم نفوذ دنيوي فأضحت الكنيسة التي شرَّعها كيانا ذا نفوذ سياسي وديني أدار ظهره للمسيح وتعاليمه واندمج في العالم. مخالفين بذلك تعاليم الأناجيل حيث قال المسيح عن أتباعه «إنهم ليسوا جزءا من

العالم، كما أني أنا لست جزءا من العالم». (يوحنا ١٧: ١٤)

ذلك النفوذ الدنيوي والسياسي والديني مكنهم من:

١ - مطالبة الناس أن يتبعوا تعاليم الكنيسة دون مناقشة ويطيعوا أوامرها طاعة عمياء

٢- مجدوا للناس حياة الزهد والتقشف والنهي عن التمتع بجمال الحياة ودعوا الناس إلى تعذيب النفس وحرمانها استعدادا واستحقاقا لنعيم الآخرة[١].

٣- فرض التربية التي يؤخذ بها التلاميذ في مدارسهم ومصادرة الكتب التي لا تساير نزعاتهم، وإقصاء المعلمين المارقين عن تعاليمهم.

٤ - غضبت الكنيسة على كل من عصي أوامرها أو جرؤ على التفكير والاستقلال في الرأي وأخرجته من حظيرتها

٥- قامت بحرق وتعذيب كل من تسول له نفسه أن يخالف أوامرها وجعلت الفكر قاصرا على ما يوافق معتقداتها فقط؛ بمعني أن الكنيسة عندما تركت للعقل أن يفكر وأن يبحث جعلت للكتاب المقدس الكلمة الأخيرة فيما يري العقل ويحكم، وعلى هذا الأساس كان الفلاسفة والمفكرون يقدمون النظريات فإذا أقرتها الكنيسة واعتبرتها موافقة للكتاب المقدس كان لها اعتبارها في الدين المسيحي، على اعتبار أن هذا هو فهم الكنيسة، الذي يعتبر مساويا لنص الكتاب المقدس في القداسة.

(١) سيدني دارك النهضة الأوربية ص ٢-٣ ترجمة وتعليق محمد بدران مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١

٦- أخذ رجال الكنيسة يدرسون الفلسفة اليونانية القديمة ويمزجونها بالدين ووقع الخلاف حول شخصية المسيح وهل هو رسول كما يقول الإسلام، أم أن الله تجسد فيه وتداخلت المسائل الدينية بالفلسفية لتحديد طبيعة المسيح وامتزجت بذلك المسيحية بكثير من الديانات الوثنية والفلسفات الوضعية، وأدي ذلك إلى تفشي مفاهيم خاطئة أثرت في المجتمع الغربي بشكل كبير ولم يستطع رجال الدين المسيحي تقديم فكر جديد يشبع العقلية الغربية بقدر ما قدموا الحجر والحجب لتلك العقلية عن التفكير وكانوا حجر عثرة في سبيل إعمال العقل.

٧- قالت الكنيسة إن الإنسان مؤلف من عنصرين، النفس والبدن، وإن هناك نزاعا مستمرا بينهما وإن الكمال الروحي الذي ينشده الإنسان لا يتم إلا إذا فارقت الروح الجسد، وإن الكتاب المقدس جمع كل شيء ولم يبق للنظر وللبحث مجالا بعد النصوص الدينية ومن هنا جاء اضطهاد الكنيسة للعلم.

٨- قدمت الكنيسة معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية وعدتها من أصول الدين، فلما عارض رجال العلم هذه المعلومات قامت الكنيسة باضطهادهم؛ فأنشأت محاكم للتفتيش لمعاقبة الملحدين والزنادقة المارقين عن أصولها، بالحرق وهم أحياء والقتل وتفننوا في صنوف التعذيب لكل المعارضين[1]

(١) المرجع السابق ص١-٣. د. محمود عتمان الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص٢٤-٢٧ مكتبة الأنجلو المصرية

٩- سادت أوربا في فترة التسلط الكنسي نظرية السيف الواحد؛ أي السلطة الجامعة بين الديني والمدني، سواء تولاها البابا وات الأباطرة أم الملوك الذين يوليهم ويباركهم البابا وات، وعرف هذا النظام في التاريخ الأوربي بنظرية الحق الإلهي للملوك(١)

١٠- طبقت الكنيسة عمليا ما يثبت إصرارها على الطغيان وحشرت الجيوش الجرارة لمحاربة كل من سولت له نفسه مخالفة آرائها أو اعتناق ما يخالف عقيدتها سواء من المسلمين كما حدث في الحروب الصليبية، أم اليهود أم الطوائف النصرانية نفسها التي اختلفت مع الكنيسة في قضية من قضايا العقيدة أو الشريعة، ومن ثم أنشأت الكنيسة محاكم التفتيش في العصور الوسطي(٢).

ب- **العنصر اليهودي:**

حرمت الكنيسة على اليهود الوصول إلى المراكز القيادية في المجتمع المسيحي، هذا فضلا عن اضطهادهم وقصر الأعمال الوضيعة عليهم، فكانت تضع حاجزا منيعا بين المجتمع المسيحي والفئة اليهودية، فأوغرت صدر اليهود، وتحينوا الفرصة لقلب أوربا ضدهم، فاستهدفت الثورة الفرنسية التي قامت أصلا في محافل الماسونية، دعم حركة دخول اليهود إلى المجتمع الأوربي وقامت الفئة اليهودية بجمع المال والعمل بالربا، ودعم الأبحاث العلمية أولا ثم إخراجها بعد ذلك من ثوبها العلمي وتطبيق تلك الأبحاث على مجال الدين والأخلاق لإفسادهما

(١) د. محمد عمارة العلمانية بين الغرب والإسلام ص٥-٦ دار الوفاء ١٤١٧ ط الأولي

(٢) سفر بن عبد الرحمن الحوالي العلمانية نشأتها وتطورها ص١٢٨-١٣٠ ط الأولي مكة ١٩٨٢م

ونشر الإباحة والإلحاد نجد ذلك واضحا من خلال تطبيق نظرية **دارون**[١] **وسبنسر**[٢] **و ماركس**[٣]، وتثبيت دعائم المنهج المادي والعمل على نشر المنهج الوضعي التجريبي وعزل الدين بمفهومه المسيحي عن التربية والتعليم[٤]

ج – اتصال الأوربيين بالمسلمين:

اتصل الأوربيون بالمسلمين في تلك الفترة اتصالا وثيقا وذلك عن طريق التجارة وعن طريق الحروب الصليبية وعن طريق تلقي كثير من الأوربيين التعليم في المدارس الإسلامية في الأندلس هذا الاتصال مكن الأوربيين من اكتشاف الروح الإسلامية التي تحترم الفرد وتحترم عقله، وتطلب منه أن يحكم عقله قبل الإيمان بالدين وتعلمه أن إيمان المقلد غير مقبول إلا من العاجز عن التفكير، وتطلب من الفرد أن يستغل الطبيعة لصالح الإنسان ومن أجل ذلك نمت الروح العلمية عند المسلمين فاحترموا العلم والعلماء وعملوا على تشجيعهم، وفرق المسلمون بين

---

(١) **تشارلز دارون** عالم تاريخ طبيعي وجيولوجي بريطاني ولد في إنجلترا في ١٢ فبراير ١٨٠٩ في شرو سبوري لعائلة إنجليزية علمية وتوفي في ١٩ أبريل ١٨٨٢ معجم الفلاسفة / جورج الطرابيشي ص ٢١٣.

(٢) هربرت سبنسر (Herbert Spencer) هو فيلسوف بريطاني (٢٧ إبريل ١٨٢٠ – ٨ ديسمبر ١٩٠٣). مؤلف كتاب " الرجل ضد الدولة" الذي قدم فيه رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها. **معجم الفلاسفة /جورج الطرابيشي ص٣٥٦**

(٣) **كارل ماركس** فيلسوف ألماني كان في أجداده عدد كبير من الحاخامات. جورج طرابيشي. معجم الفلاسفة ط ٣ ص٦١٧ دار الطليعة بيروت ١٩٨٧م

(٤) **أنور الجندي محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل ج٨ طابع الإسلام والأيدولوجيات ص٣١٩-٣٣٠ دار الأنصار ١٩٨٦م (بتصرف).**

مجالين في المعرفة، وهما مجال الطبيعة ومجال ما وراء الطبيعة.

وعرفوا أن المنهج الملائم للبحث في الطبيعة هو منهج التجربة والملاحظة، ومارسوا ذلك فعلا، ووصلوا إلى كثير من الحقائق العلمية عن طريق ذلك المنهج، اتصل الأوربيون بالمسلمين وعرفوا ذلك، ودرس كثير منهم في الأندلس ونقلوا التراث الإسلامي إلى لغاتهم، حتى إن روجر بيكون[1] نفسه الذي بشر بالمنهج التجريبي اعترف بأنه تلميذ للعرب المسلمين [2]

وكان لعلماء المسلمين فضل السبق في تقديم كثير من المناهج العلمية الحديثة للغرب ليقيموا دولتهم على أسس علمية وكذلك قدم المسلمون الاكتشافات والاختراعات والنظريات. إلا أن الغرب ينكر ذلك، وقليل منهم من يعترف بالحق.

وإذا كان الوضع كذلك فإنه من الواجب علينا ونحن بصدد هذه الجزئية أن نبين وجه الحق فيها.

- كان ابن الهيثم أول من أعلن منهج البحث العلمي في عناصره الثلاث (الاستقراء والقياس والتمثيل) قبل فرنسيس بيكون بثمانية قرون.
- نظر ابن خلدون فلسفة الاجتماع قبل مونتسكيو وتارد، ودوركايم، وآدم سميث بثلاثة قرون.
- قدم المعري (رسالة الغفران) التي تأثر بها دانتي وكتب على نهجها (الكوميديا الإلهية).

---

(١) راهب إنجليزي لقب بالمعلم الرائع (Doctor Mirabilis) ولد في١٢١٤ وتوفي في أكسفورد ١٢٩٤ كان رائدا للعلم التجريبي معجم الفلاسفة / جورج طرابيشي ط٣ ص ٢٢٤- ٢٢٥

(٢) د. محمود عتمان. الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص٣٥-٤٠ (بتصرف).

- أشار كثير من الباحثين إلى مجمل الآراء التي أوردها دارون وأنها قد جاءت في كتابات ابن مسكويه وإخوان الصفا وابن خلدون، وخاصة فكرة نشوء الحيوان من النباتات.
- قام ابن النفيس في مستهل القرن الثالث الهجري باكتشافه الدورة الدموية الصغرى. ودحض نظرية جالينوس التي كانت سائدة حتى ذلك العهد.
- قام وليم هارفي بتجاربه على ضوء أبحاث ابن النفيس ومن تلاه ثم أنكر الغرب ماضي ابن النفيس وسلطوا الأضواء على أبحاث هارفي وحده عدة قرون إلى أن أظهر الحقيقة ماكس مايرهوف سنة ١٩٧١.
- وضع العرب علم الأرقام الذي عرفه العالم كله بديلا للأرقام اليونانية أو الرومانية التي كانت لا تساعد على الحسابات العليا.(١)
- تقول الكاتبة الألمانية زيجريد هونكه: ولولا هذه الأعداد العربية ما قام هذا البناء الشامخ الخاص بالرياضيات والطبيعيات والفلك أو الطائرات وكذلك الطبيعة النووية وغيرها.
- _ أثبت العلماء أن نظريات ليونارد دافنشي الفنان الإيطالي في الصخور والجبال وطبيعة الحفريات، وهي المعلومات القيمة التي بدأ بها علم الجيولوجيا في الغرب كان قد اقتبسها من كتاب (الشفاء)لابن سينا.
- _ يعقوب بن الصباح الكندي: سبق فرويد وماكدوجل في علم التحليل النفسي ومداواة الأمراض النفسية بالألحان الموسيقية.
- _ أعلن أحد أساتذة جامعة تمبل في فيلادلفيا في كتاب له بعنوان الكيمياء والصناعات في العراق القديم: أن الأفران والمواقد وأجهزة التقطير والتصعيد

(١) أنور الجندي. الحضارة والعلوم ص٣٨-٣٩ دار الأنصار مصر ١٩٨٩م

والكشف هي من أجهزة المسلمين، وأن المصطلحات الخاصة بالكيمياء والمعادن لها أصل قديم بكلمات عربية

- **الخوارزمي والبيروني** أخذ عنهما عالم الحساب الإيطالي ليونارد دوبيز علم الرياضيّات وعنهم أخذ الصفر عند العرب وأخذ طريقتهم في كتابته والتعبير عنه، وأخذ أيضًا طريقة العرب في كتابة الأرقام من اليمين إلى اليسار، وبعدها وصل اختراع الصفر إلى فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإنجلترا. وبذلك ساهم اختراع الصفر إلى تخلّص الدول الأوروبية من نظام الأعداد الروماني المعقد.
- وأدخل من علم الرياضيات، مالم تكن تعرفه أوربا ولا تعرف الخانات الحسابية إلا عن طريقه (١)

د- الثورة الصناعية:

عاش المجتمع الأوربي لفترة طويلة في ظل فلسفة المجتمع الإقطاعي الأوروبي اللاهوتي،

والتي كانت تري أن ليس في الإمكان أبدع مما كان، وألا جدوي من محاولات النقد الاجتماعي والإصلاح وذلك لأن الإنسان غير قادر على الوعي بمصالحه الحقيقية، وهذه الفلسفة اللاهوتية تنفي التغير والإصلاح والثورة وكل محاولة إنسانية للتقدم، ولكن مع بزوغ الثورة الصناعية الناشئة عن الثورة العلمية، بدأ الناس يدركون أنه بالإمكان التقدم نحو التغيير وأن هذا التغير قد أتي كثمرة للعقل الإنساني ومن هنا بدأ فكر فلسفة التنوير يظهر من منطلق نقدي عقلاني يدركون النظم الاجتماعية المختلفة سياسية ودينية واقتصادية وأخلاقية ويضعونها موضع

(١) زيجريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب ص ٩١ دار الآفاق بيروت ط التاسعة ١٩٩١م

النقد العنيف بمعيار العقل وحده ويطالبون بتغيير النظم التي تبدو غير منطقية أو غير متسقة مع العقل.

وقد ساعد على ظهور هذه الحركة النقدية وازدهارها مجموعة من العوامل مثل التقدم الهائل الذي أحرزته العلوم الطبيعية والتقدم الصناعي وما ترتب عنه من تغييرات واسعة في بناء المجتمع كظهور طبقات جديدة (أصحاب الأعمال الصناعية والعمال بصفة خاصة) وإزالة القيود القديمة المفروضة على حرية حركة العمل وهي القيود التي سادت المجتمع الإقطاعي

وظهور مشاكل جديدة مرتبطة بنمو المجتمع الصناعي بصفة عامة، كالفقر وازدحام المراكز الصناعية والظروف الصحية والاجتماعية المتدهورة التي كان يعيشها عمال المدن، والأوضاع الاقتصادية السيئة للطبقة العاملة بصفة عامة وذلك بالإضافة إلى حركة الإصلاح الديني.

كل ما سبق أدي إلى تَولُد قناعة تامة لدي قطاع هائل من المفكرين، ومن ورائهم جم غفير من الجماهير أنه (لا بد من إسقاط إله الكنيسة حتى تسقط الكنيسة، لأن الكنيسة تستطيل باسم الله). وقد سبق هذا الإنكار محاولة للإصلاح، بمحاربة بعض تعاليم الكنيسة، كالتي قام بها **مارتن لوثر** مؤسس البروتستانتية المتوفي سنة (١٥٤٦)، **كالفن** المتوفي سنة (١٥٦٤)[١]، وأخذوا يحاربون تعاليم البابا التي كانوا يسمونها تعاليم الشيطان، مثل عقيدة التثليث، وكذلك بيع صكوك الغفران، والاعتراف بالخطيئة، وقامت حرب ضروس بين هذين وبين البابا.

(١) جورج طرابيشي. معجم الفلاسفة ص٥٤٢-٥٤٦

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأ العصر الذي سموه (عصر التنوير أو عصر سيادة العقل) وظهر فيه **نتشه**: الذي أعلن سيطرة العقل على الدين سنة (١٧١٤م)، وظهر

(**هيجل**): الذي حاول أن يؤيد الدين بتخبط، إذ إن الله عند هيجل عقل سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

وزاد الصراع بين الدين والعلم ببزوغ فجر القرن التاسع عشر الذي سمي بعصر (**الوضعية**) أو عصر سيادة الحس، الذي يعتبر الواقع أو الطبيعة هو مصدر المعرفة، وسادت الطبيعة على الدين والعقل، وأن عقل الإنسان هو وليد الطبيعة، وطريق الإنسان يبتدئ بالفردية وينتهي بالجماعة التي يجب أن يذوب فيها الفرد، والطبيعة هي التي تُنَمِي الحقيقة وتنقشها في العقل. وأشهر علماء هذا العصر (**أوغست كونت**)[1]

وقد ظهر في هذا العصر (**دارون**) الذي وضع كتابه أصل الأنواع سنة (١٨٥٩م)، وكتابه الآخر أصل الإنسان سنة (١٨١٧م)، وزاد النزاع واحتدم الخصام بين **دارون** وبين الكنيسة التي كفرته، ووقف الناس بادئ ذي بدء مع الكنيسة، ولكن الموقف أخذ يتحول تدريجيا لصالح **دارون**، وقد وجد الناس أن هذه فرصة سانحة للتخلص من الغول البشع الذي يضطهد الناس باسم الدين.

وأنكر **دارون** تدخل الله في عملية النشوء والارتقاء، وقال: (إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي

(١) د. محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٧٩

بحت).

ثم جاء (**ماركس**) ليعلن الإلحاد من خلال أبحاثه في الاقتصاد، فهو يري أن الدين والقيم الروحية والأخلاقية والسلوك هو عبارة عن انعكاس عن المادة، وتاريخ العالم هو تاريخ البحث عن الطعام، وحدد في (المنيفستو) أي البيان الشيوعي المطالب الرئيسية للإنسان: المأكل والمسكن والإشباع الجنسي[1]. والدين عنده هو أفيون الشعوب.

واستخدمت كل تلك النظريات في إقناع العامة والخاصة للتخلص من التسلط الديني والكهنوت الكنسي؛ وظهرت الفلسفة الوضعية كبديل عقلي وتفسير علمي للمتغيرات الاجتماعية والأخلاقية.

مرحلة انتقال

من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر

كان للعوامل السابقة أثر كبير في تحول الفكر الأوروبي من مرحلة الجمود والانحطاط إلى مرحلة النهوض والازدهار، وبدأ دبيب الحياة والفكر يعمل في المجتمع الأوروبي، فقامت الثورة الفرنسية على يد **مارتن لوثر**، وظهرت العلوم فحاز العلم ثقة العقل الإنساني، بل ساد الاعتقاد بأن لدي العلم الإجابة على كل سؤال.

وأن كل ما على المرء إذا كان في حاجة إلى معلومات فنية، أو كان مريضا أو يعاني

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦

مشكلة ما، هو أن يسأل العالم ليجد لديه الجواب.

ومن هنا أصبح العلم يضطلع بوظيفة اجتماعية كانت في الأصل من مهام الدين - ونعني بها وظيفة كفالة الطمأنينة القصوى. وفي حالات كثيرة حل الإيمان بالعلم محل الإيمان بالله وحتى عندما كان الدين يعد متمشيا مع العلم كان يعمل بحيث يلائم عقلية المؤمن بالحقيقة العلمية.

ومنذ ذلك العصر فقد أصبح من العسير الوقوف في وجه العلم الفعّال لا العلم النظري فقط، وفي وجه الإيمان بإمكان سيطرة الإنسان على الطبيعة.

وجاء القرن السابع عشر والنزاع بين الدين والعلم على أشد ما يكون، وحاول ديكارت[1] أن يحل المشكلة القائمة بين العلم والدين وذلك بفصل موضوعات كل منهما عن الآخر.

فميدان العلم -الطبيعة، وموضوعه استغلال القوي الطبيعية، وأدواته الرياضة والتجربة.

- أما الدين. فهو خاص بمصائر النفس في العالم الآخر ويعتمد على اعتقادات معينة في غاية البساطة وبعيدة عن المسائل اللاهوتية المعقدة التي يدرسها الآباء وتقوم عليها الكنيسة، ولا سلطان لأحدهما على الآخر، ومن هنا فقد مجد عقل الفرد وجعل العقل الفردي هو القياس الوحيد للحقيقة وقد مكن بذلك للفردية

(١) رينيه ديكارت (٣١ مارس ١٥٩٦ - ١١ فبراير ١٦٥٠)، فيلسوف، وعالم رياضي وفيزيائي فرنسي، يعتبر ديكارت المؤسس الحقيقي للفلسفة الحديثة جورج طرابيشي / معجم الفلاسفة ط٣ ص٢٩٩-٣٠٣ (بتصرف).

والعلم الألى اللذين كانا سمة عصر النهضة أن ينطلقا دون قيود تكبح جماحهما وساد عصر ديكارت نزعتان أساسيتان وهما:

-الفردية العنيفة التي كانت تعتبر العقل الفردي مقياس كل شيء والنزعة الثانية هي نزعة العلم الآلي. وكان العصر يحس بهما إحساسا قويا ولا يستطيع تسويغهما فجاء ديكارت وسوغها تسويغا فلسفيا، فبجعله العقل الإنساني مقياس كل شيء جعل الفردية قائمة على مسوغ معقول، بعد أن كانت تمردا وعصيانا وساهم في العلم الألى مساهمة فعاله وأنشأ له فلسفة تحميه بعد أن كان إحساسا ليس له ما يسوّغه، وانتشرت فلسفة ديكارت هذه في أوروبا كلها في حياته، وأما بعد مماته فكانت هي الشاغل للأوربيين، فهم بين متتلمذ عليه، ومدافع عنه، ومعارض له، والمهم أنها شغلت أوروبا كلها[1]

وساد هذا التفكير أوربا وسمي بمذهب التأليه العقلي أو الدين الطبيعي، واعتبرت التجربة أساسية في تكوين هذا المذهب وظفر بكثير من الأنصار، الذي يتحدد مذهبهم في أن الإنسان يستطيع أن يعرف كل عناصره الدينية والأخلاقية من تجاربه وتعقلاته، والعقل عند هؤلاء يتعارض مع كل السلطات التي تخرج عن حدوده، ولا يعترف بالعقائد التي أتت عن طريق الوحي، ولا يعترف إلا بعقيدتين اثنتين يعطيهما صفة اليقين وهما:

_ وجود الله باعتباره مهندسا للكون

_خلود النفس كشرط من شروط تحقيق العدالة.

(١) د. محمود عتمان الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص٤٧-٤٩

وكان لهذا المذهب طابعه المشترك في الفكر الإنجليزي والفرنسي والألماني، وكان له فلاسفة يناصرونه في هذه الدول الثلاث، وسمي هذا العصر -بعصر التنوير- وطابعه الفكري المشترك. كما يقول دكتور **البهي**: نمو شعور العقل وإحساسه بنفسه وبقدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية في يده بعد أن يزيل كل عبودية ورثها من قبل -وهي عبودية الكنيسة وتعاليمها - حتى لا تحجبه عن التخطيط الواضح لهذا المصير.

والشجاعة والجرأة في إخضاع كل حدث تاريخي لامتحان العقل، وكذلك في تكوين الدولة والجماعة والاقتصاد، والدين والتربية تكوينا جديدا على الأسس السليمة المصفاة التي لكل واحد منها الإيمان بتعاون جميع المصالح والمنافع وبالأخوة في الإنسانية على أساس من هذه الثقافة العقلية وحدها المستمرة في التزايد والنمو.

ومعني ذلك كله: وجوب سيادة العقل كمصدر للمعرفة على غيره، وغيره الذي ينازعه السيادة في ذلك الوقت وهو الدين -أي المسيحية والكاثوليكية أولا - وقد تكون معها البروتستانتية كمذهب عرف للإصلاح الديني هناك، فللعقل في نظر أصحاب عصر التنوير الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة، وما فيها من سياسة وقانون ودين وإنسانية هي هدف الحياة للجميع وليس الله أو المجتمع الخاص أو الدولة الخاصة،

وكما يسمي هذا العصر بعصر التنوير يسمي أيضا بالعصر الإنساني أي عصر الإيمان الفلسفي بإله ليس له وحي وليس بخالق للعالم، إذ كل مسميات هذه السماء تعتبر من خواصه، فالتنوير لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه،

وإحلال العقل محله فيه، والإنسانية التي يبشر بها هذا العصر ليست إلا عِوَضا عن القرب من الله كهدف للإنسان في سلوكه في الحياة، والإله الذي ليس له وحي ولا خلق يتفق مع تحكيم العقل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها[1]

ثم كان بعد ذلك أن أخذت الوضعية السلطة من الدين والعقل على السواء. وذلك حينما بدأ المنهج الفلسفي الواقعي في فرنسا والذي اعتبر الحس بما يشتمل عليه من التجربة والملاحظة هو المصدر الوحيد للمعرفة، وما لبث أن انتشر ذلك المذهب الفلسفي الفرنسي في أوربا كلها.

وأصبحت الفلسفة الغربية واقعية حسية وساد الحس كمصدر وحيد للمعرفة.

وأخذ السلطة من الدين والعقل على السواء، وإذا أردنا أن نجمل جميع الفلسفات التي ظهرت في أوربا منذ عصر النهضة (القرن الخامس عشر والسادس عشر) إلى العصر الحديث (النصف الأول من القرن العشرين) فإننا سنري، أن عصر النهضة ماج بكثير من الاضطرابات والتحولات، بين علماء منهم من يحاول استكناه أسرار الطبيعة وآخرون يذيعون الإلحاد، كما كان فيه علماء يضعون أسس العلم الحديث في الرياضيات والفلك والطبيعيات، كما كان فيه نقاد يتشككون في أصول الأخلاق ومبادئ المعرفة.

وبطبيعة الحال ظهر فيه فلاسفة تموج كل هذه الأفكار في عقولهم، فيخرجون

(١) د. محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٢٩٦-٢٩٧، د. محمود عتمان الفكر الإسلامي الحديث وموقف الإسلام منه ص٦٢-٦٣

مذاهب غامضة إلى أن هدأت هذه الثورة في بداية القرن السابع عشر، ويبدأ الإنشاء بعد الهدم وتزدهر نهضة دينية وبخاصة في فرنسا على يد **ديكارت** التي ما تلبث أن تخرج من ثوبها الديني، ويبث فيها روحا مغايرة للدين، وتزدهر فلسفته هذه على يد أمثال **بسكال**(١) عالم الرياضيات الفرنسي الذي صدر عنه رهان باسكال وهو حجة مبنية على نظرية الاحتمالات وتستخدم للاحتجاج بضرورة الإيمان بوجود الله

وسبينوزا(٢) الذي بدأ متوافقا مع فلسفة ديكارت عن ثنائية الجسد والعقل باعتبارهما شيئين منفصلين، ولكنه عاد وغير وجهة نظره في وقت لاحق وأكد أنهما غير منفصلين، لكونهما كيان واحد. امتاز سبينوزا باستقامة أخلاقه وخطّ لنفسه نهجا فلسفيًا يعتبر أنّ الخير الأسمى يكون في "فرح المعرفة" أي في "اتحاد الروح بالطبيعة الكاملة". وألف كتابه "الأخلاق"

بينما يضع **هوبس وفرنسيس بيكون و لوك** فلسفة واقعية تنكر الميتافيزيقا، وتستمسك بالتجربة، التي تكون هي الركيزة الأساسية للفلسفة الإنجليزية في القرن الثامن عشر على يد هيوم ويتقبلها الفرنسيون فيبرز **كوندياك** الذي يرجع المعرفة بأسرها إلى الإحساس، وينقد **فولتير ورو سو** وغيرهم أصول الدين والاجتماع باعتناقهم لتلك الفلسفة.

---

(١) بليز باسكال فيلسوف ورياضي فرنسي اخترع الآلة الحاسبة ولد في ١٩ حزيران ١٦٢٣ من أهم مؤلفاته "الخواطر" جورج طرابيشي / معجم الفلاسفة ص١٧٨-١٨١

(٢)باروخ سبينوزا فيلسوف هولندي ولد في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ في أمستردام، وتوفي في ٢١ فبراير ١٦٧٧ في لاهاي. **جورج طرابيشي / معجم الفلاسفة ص٣٥٩ -٣٦١**

إلى أن يأتي إيمانويل كانط الذي يحاول أن يجمع بين المذهبين الحسي والعقلي في محاولة لتغير العلم والوجود تلك المحاولة التي تجعل منه فيلسوف ألمانيا الأكبر.

حتى يبدو في الأفق النصف الأول من القرن التاسع عشر الذي تظهر فيه كثير من الفلسفات في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا تعتمد على التركيب والبناء.

وتظهر أسماء **هيجل**، **شلينغ**، **فيخته** في ألمانيا، ويظهر في فرنسا مين دي ليبران الذي يحاول أن يتعمق في دراسة الحياة النفسية وشرائطها.

كما **يظهر أوغست كونت** الذي يستوعب جميع هذه النواحي في مذهب واحد يصدر عن الواقعية[1]

ظهور المذهب الوضعي

إذا قلنا الفلسفة الواقعية، فهو بلا شك ترادف المذهب الوضعي، فكلاهما اسمان لمعني واحد وهو جملة القوانين المكتسبة بالتجربة وليست قوانين الوجود.

ويقصر المذهب الواقعي المعرفة اليقينية على المعرفة الآتية من الطبيعة عن طريق التجربة والملاحظة.

وأما القائلون بهذا المذهب فأشهرهم على الإطلاق **أوغست كونت**، وهو زعيم المدرسة الواقعية لأنه أخرج عملا متكاملا يشرح فيه أصول المذهب ويطبقه على العلوم المختلفة.

(١) يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص٨-٩ ط٦ دار المعارف ١٩٧٩

وقد تعلم **أوغ ست كو نت** أصول مذهبه من خلال ما درسه عن **فرنسيس بيكون وروجر بيكون**.

إلا أن فكره تكون بجانب الكونت **دي سان سيمون**[1] الذي دعا إلى إقامة دين واقعي قوامه تصور جديد للعالم على قاعدة علمية بحتة وقساوسته العلماء.

وكان **سان سيمون** أول من قال (فلسفة واقعية) و(سياسة واقعية) ولذا لابد من تسليم زمام الحكم إلى كبار رجال الصناعة والعلم بدل الأشراف والقانونيين، وفي آخر حياته أراد أن يؤسس مسيحية جديدة قائمة على محبة الإنسانية واعتبار الحياة الأرضية غاية لذاتها لا وسيلة لحياة مقبلة غير منظورة. فكان أوجست كونت أحد أتباعه الذين حققوا أمانيه في تدوين فلسفته تلك في موسوعة علمية.

من أتباع سايمون الفيلسوف أوغست كونت، والمهندس فرديناند دي لسبس الذي قام بحفر قناة السويس في مصر.

ويلاحظ أن مذهب سان سايمون الذي حمله أتباعه (سان سيمونيون) فيما بعد كان مذهبا اشتراكيا ويدعو إلى إلغاء الميراث. وكان من رأيهم أن انتقال الثروة يجب عدم تقييده بالعائلة وإنما يجب أن تؤول هذه الثروة بعد وفاة صاحبها إلى الدولة.

ويدعو أنصار هذا المذهب إلى أن تتولى الدولة تنظيم الإنتاج وتعهد به إلى المقتدرين لمصلحة المجموع العام. وأن تعهد إلى كل شخص من العمل بما

---

(١) وهو الكونت كلود هنري دي سان سيمون دورفروا (Saint Simon)، الباريسي النشأة، ولد عام ١٧٦٠م، وتوفي١٨٢٥م

. القاموس الاقتصادي - تأليف حسن النجفي - بغداد ١٩٧٧م - صفحة ٢٨١

يتناسب ودرجة كفاءته وتقيم هذه الكفاءة بالقدر المنتج من العمل. ويجب على السلطة أن تسلم إلى الصناعيين لا للعلماء، لأنهم هم الرؤساء الحقيقيون للشعب، فهم الذين يقودونه في أعماله اليومية. فالأمة هي ورشة صناعية واسعة، تزول فيها فروق المولد والنسب، وتبقى اختلافات القدرات. وقد كانت آراؤه وراء بدايات "العلم الوضعي" والاشتراكية.

كما تأثر فكر **أوغست كونت بشارل فوريه** ١٧٧٢-١٨٣٧م أحد آباء الشيوعية الحديثة،

كان رجل اقتصاد وفيلسوف فرنسي، صاحب نظرية اجتماعية واقتصادية عُرِفت باسمه، تأثر في حياته بالأفكار الاشتراكية التي سبقت أفكار وأدبيات كارل ماركس. ولكنه لم يكن اشتراكيا بالمعنى الدقيق فهو لم يطالب بإلغاء الملكية وإنما كان يدعو إلى الاتحاد في الإنتاج بطريق المشاركة الاختيارية وأن يتاح لكل شخص العمل حسب قابليته الشخصية وله الحق في تغيير نوع العمل.

كان **فوريه** يأمل في تغيير العالم وتحويله إلى نظام اقتصادي أفضل عن طريق المثال الصالح، وليس عن طريق الوعظ والإرشاد، وتصور مستعمرة تدار على شكل هيئة تعاونية بحيث يعيش أفرادها في بناء مشترك، ويختص كل منهم بعمل معين طبقا لذوقه للإبقاء على حياة الجماعة، وهذا في رأيه سيؤدي إلى زيادة الإنتاج بحيث تتاح السبل والفرص لكل من في المستعمرة في أن يعتزل العمل عندما يبلغ السن الثامنة والعشرين، وقد امتلأت نفسه حبورا وأملا، كما طالب بأن يكون المجتمع فرقا متعاونة تتلاشي فيها الأسرة وتصبح الأسرة حرة من كل القيود والواجبات وتلغي جميع القوانين التي تحد من الحرية سواء أكانت قوانين وضعية

أم أخلاقية أم دينية.

وكان فوربيه يأمل في أن يقوم أحد الأغنياء بتمويل مستعمرته الخيالية.

ولكن أحدا لم يمد له يد العون، وبعد وفاته عمد الكثيرون إلى تطبيق نظريته، وأسسوا عددا من الهيئات التعاونية في فرنسا(١).

هذا هو الفكر الذي تكون من خلاله فكر وفلسفة أوغست كونت زعيم الفلسفة الوضعية أو الواقعية.

أوغست كونت

(١٧٩٨-١٨٥٧)

ولد أوغست كونت في مونبيليه بجنوب فرنسا وعاش في أسرة شديدة التعلق بالكاثوليكية، ولكنه فقد الإيمان منذ الرابعة عشرة؛ وترك تعلم الأدب واتجه إلى تعلم الرياضيات. والتحق بمدرسة الهندسة الحربية. وكان جل طلبة هذه المدرسة متشيعين لسان سيمون وهو في طليعتهم، وكان لأفكارسيمون أثر كبير على نظرياته التي عرضها فيما بعد في أهم مؤلفاته: "محاضرات في الفلسفة الوضعية" و"نظام في السياسة الوضعية" اتصل به وظل يعمل كاتبا ومعاونا له حتى ١٨٢٢ فاختلف مع أستاذه؛ لاقتناعه أن الشرط الأول للنجاح إعادة وحدة الاعتقاد إلى العقول كما كان الحال في العصر الوسيط ولكن بوساطة العلم لا بوساطة الدين.

ونشر كتابا بعنوان (السياسة الواقعية) ١٨٢٤ يعلم فيه أن فلسفة القرن الثامن عشر

(١) حسن النجفي - القاموس الاقتصادي ص ١٣٣ مطبعة الإدارة المحلية - بغداد - ١٩٧٧م، فوربيه، شارل - الموسوعة العربية الميسرة، ١٩٦٥ إشراف محمد شفيق .

القائمة على حرية الرأي وسلطة الشعب فلسفة مفيدة في النقد والهدم عقيمة في الإنشاء، لأن هذين المبدأين نقديان لا منظمان، وأن الواجب قبل كل شيء وضع مذهب علمي شامل تقوم عليه سياسة واقعية تمتنع معها حرية الرأي كما تمتنع في الرياضيات أو العلم الطبيعي، إذ يتبين منها أن العلاقات الإنسانية خاضعة لقوانين وأن النظام الاجتماعي متضامن مع جملة الحضارة كما تبدو في العلم والفن والصناعة، فيستقر المجتمع على خير حال. وذلك هو الفكر الذي سيكرس له أوجست كونت حياته. والعمل من أجل تحقيقه(١)

ولم يكن العمل الفلسفي أو العلمي أو ضيق العيش شاغلا لكونت عن حياة اللهو والمجون التي كان يحب دائما أن يحياها، فكان في مقدمة أقرانه في اللهو والمرح وكان يخرج في كثير من الأحيان إلى حدائق باليه رويال حيث تكثر الغانيات، وهناك عرف كارولين ماسان، التي ظل يتردد عليها حينا بعد حين.

وبالرغم من ماضيها السيء حاول "كونت" تقويمها ثم تزوجها بعد ذلك، رغم ما كان يعانيه من ضيق العيش وقلة موارد الكسب والتي لا تفي بمتطلبات زوجة لها مواصفات كارولين كونها شديدة الطموح، تأمل أن تري زوجها في أرفع المناصب يحف به الجاه والثروة وألقاب الشرف(٢).

فحاول كونت أن يحقق لها شيئا مما تصبو إليه وقام بإلقاء الدروس، ثم عكف عن ذلك ونظم عدة محاضرات في الفلسفة الوضعية ولاقت نجاحا وإقبالا من الطبقة

(١) ليفي بريل. فلسفة أوجست كونت ص٣-٥ ترجمة وتقديم تيمور قاسم. السيد محمد بدوي ط ٢ مكتبة الأنجلو المصرية

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص٣١٦ ط ٦ دار المعارف.

المثقفة، إلا أنه غادر باريس لما انتابه من أزمة عقلية ولوثة أصابت عقله، وقيل إنها ترجع إلى المجهود الشاق الذي كان يبذله في إعداد محاضراته كما ترجع إلى الصعوبات المالية وشواغل الحياة، واستطاع أن يجتاز تلك المِحنة بفضل والدته التي ظلت تحيطه بعنايتها إلى جانب زوجته، حتى عاد إلى حالته الطبيعية، وقد مكثت تلك الأزمة معه ثلاث سنوات من سنه ١٨٢٦-١٨٢٩، عاد بعدها إلى إلقاء محاضراته في الفلسفة الوضعية واستطاع طبع المجلد الأول من كتاب (دروس الفلسفة الوضعية) الذي صدر في ستة مجلدات، يعرض فيه وقائع العلوم وقوانينها ومناهجها عرضا منظما.

ثم نشر كتيبا بعنوان (**م قال في ا لروح ا لواقعي**) سنة ١٨٤٤م. هو خير مقدمة لفلسفته، وقد حاول كونت أن يحقق لزوجته من خلال مؤلفاته ومحاضراته مستوي معيشيا لا بأس به إلا أن زوجته لم تقنع بذلك وتركته ولم تعد إليه، ثم توالت عليه المحن بعد ذلك الوظيفية والمالية، إلى الدرجة التي كاد أن يصل فيها إلى الموت جوعا، لولا جون ستيوارت مل المتحمس له، الذي جمع له المال عدة مرات من أصدقائه الأغنياء، حتى انتصر لآرائه العالم "ليتريه" فكتب عن مؤلفات كونت وآرائه، مقالات كلها مدح وثناء، وفتح باب الاكتتاب لضمان أن يعيش ذلك الفيلسوف حياة كريمة.

بدأت مرحلة جديدة من حياته تعرف من خلالها بسيدة شابة في الثلاثين من عمرها،

زوجة لرجل صدر ضده حكم العدالة لتبديده في لعب الميسر بعض المال الذي اختلسه من عمله، وكانت تدعي مدام (**ك لوتيه لد دي فو**) وقد نال منها مرض الصدر حدا، زاد من عاطفة كونت تجاهها وجعلها تحتل مكانة عالية في كتاباته

وصارت بينهما علاقة شديدة من الامتزاج الروحي والفكري إلى أن ماتت بين ذراعيه سنة ١٨٤٦.م، فأصيب بأزمة عصبية ثانية، وهام على أثرها بهذه المرأة وجعلها إلهه، الذي يتوجه إليه بالعبادة والتقديس ثم أخذت عاطفته هذه مكانا جعله يحاول تخليد ذكراها، وذلك بأن اتخذ منها مثال "الإنسانية "التي يتوجه إليها بالصلاة والفكر كل يوم، وصارت هي وحيه الذي يوحي إليه بالفكر ويتحاور معه أثناء وضعه لإحدى عشرة رسالة فلسفية في ديانة الإنسانية جعلها غلي هيئة حوار بين امرأة وراهب يمثل الإنسانية.

وصدر على إثر ذلك كتابه في ٤ مجلدات، عن مذهبه في (السياسة الواقعية) أول كتاب في علم الاجتماع يضع ديانة الإنسانية سنة ١٨٥١ - ١٨٥٤ واختصره في كتاب (التعليم الديني الواقعي)[١].

توفي أوغست كونت، يوم ٥ سبتمبر ١٨٥٧ بباريس، منتحرا بعد أن ألقى بنفسه في نهر السين جراء انعكاسات نفسية واضطرابات عقلية تراكمت على حياته المتقلبة التي طبعها البؤس والإحباط والفشل في كسب الاعتراف الأكاديمي به[٢]

(١) موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠، الجزء الخامس ص ٢٧٣

(٢) ليفي بريل فلسفة أوجست كونت ص٧-٩ وتاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص ٣١٦-٣١٧.

الفلسفة الوضعية

طرح أوغست كونت أهم أفكاره التي أسست لمذهبه الجديد في مؤلفيه "مذهب في السياسة الوضعية" و"دروس في الفلسفة الوضعية"، الذي يتكون من ستة مجلدات (١٨٣٠-١٨٤٢)، وهو المؤلف الذي سماه بعد ذلك "علم الاجتماع"، وقد كانت أعماله الموسوعية عموما تتجاوب مع متطلبات اللحظة التاريخية في مسار الثورة الفرنسية، وما نجم عنها من ارتباكات سياسية وتقلبات اجتماعية وتخوفات من مستقبل ملغوم.

يرى كونت أن مظاهر الفوضى الأخلاقية والاجتماعية ترجع إلى الفوضى العقلية، ويرجع الفوضى العقلية إلى استمرار سيادة الاتجاهات الدينية من ناحية والفلسفية من ناحية أخرى.

في حين أن هذين الاتجاهين يمثلان مراحل سابقة مرت بها الإنسانية -وأنه يجب أن تنتقل إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الفكر الوضعي.

ففي هذه المرحلة الأخيرة يمكن مواجهة مشكلات المجتمع من خلال العلم.

هكذا لا يتطلب مواجهة مشكلات المجتمع تغيير الأساس الاقتصادي للمجتمع، وإنما تعتبر مناهج التفكير والقضاء على الفوضى العقلية، وتحقيق الانسجام والوحدة الفكرية ضمانا لاستمراره وتقدمه

من أجل تحقيق هذا الهدف دعا إلى إنشاء علم جديد يدرس المجتمع دراسة علمية تستند إلى المنهج الوضعي. وقد طبق كونت هذا المنهج على معظم المشاكل التي حفل بها عصره.

ففي مجال المشكلات الاجتماعية العامة: أعلن أن تحقيق الوحدة العقلية من شأنه تحقيق وحدة فكر حول أسلوب مواجهة المشكلات وطبيعة الحل نفسه، خاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين الناس داخل المجتمع.

وفى ميدان التربية: فإن هذه الوحدة ستساعد المسئولين على وضع تربية قومية ترتكز على مبادئ ومعتقدات ومعايير أخلاقية تتفق مع مستوى التفكير العام.

وفى ميدان السياسة: يمكن للاتجاه الوضعي تحقيق مبدأ هام وهو فصل السلطتين الدينية والزمنية وقيام تنظيمات سياسية جديدة قادرة على التوفيق بين مقتضيات النظام والتقدم، ويذهب كونت إلى أن عدم القدرة على تصور التوازن والتوفيق بين هذين المفهومين هو أحد أسبا ب الفوضى وعدم الاستقرار في الحياة الاجتماعية.

وفى ميدان الجمال: يذهب كونت إلى ضرورة قيام فن جديد يرتبط بالعقائد والأفكار ويتفق مع المرحلة التقدمية التي وصلت إليها الحياة الاجتماعية

وفى ميدان الاقتصاد: أشار إلى أن الاتجاه الوضعي قادر على تحقيق الاستقرار الاقتصادي من خلال تنظيم العلاقات بين رأس المال والعمل

بحيث نتجنب الصراع بينهما ونجنب المجتمع ما يؤدى إليه هذا الصراع من مستقبل غامض غير مأمون[1].

ونستطيع أن نلمس كل تلك المبادئ الأساسية للفلسفة الوضعية عند مؤسسها

(١) حاتم سعيد سلسلة رواد علم الاجتماع أوجست كونت نشر منتديات المنشاوي للدراسات والبحوث
http: //www. minshawi. com/vb/showthread. php?t=7738

وواضع مبادئها في تلك المجلدات التي تحفظها من الاندثار أو التلاشي. تلك الفلسفة التي كانت بمثابة ردة فعل مباشرة على الثورة الفرنسية وأفكار عصر التنوير، وأجواء الفوضى التي عاشتها فرنسا إبان تلك المرحلة التي شكلت لحظة صدام بين القديم والحديث، الموروث والوافد، المقدس والمدنس. إنها الفوضى التي تعود، كما ينقل عنه دارسوه، إلى نمط التفكير السائد في المجتمع، وليس إلى عوامل سياسية، فالمجتمع لكي يستمر ويتقدم لا يحتاج "إلى انسجام في المصالح المادية والمنافع المتبادلة فحسب، " بل يحتاج كذلك "إلى اتفاق عقلي"، كما أن هذه الفوضى ترجع في رأيه، إلى سيادة أسلوبين متناقضين للتفكير وفهم الظواهر، يتجلى الأول منهما في "الأسلوب العلمي الذي يستعمله الناس للتفكير في الظواهر الكونية والطبيعية والبيولوجية"، أما الأسلوب الثاني، فيتمثل في "التفكير الميتافيزيقي الذي يستعمله الناس للتفكير في الظواهر المتعلقة بالإنسان والمجتمع"[1]

وعن التوفيق بين نمطي التفكير السالفين وتحقيق وحدة المعرفة الإنسانية، فإنه يجب في نظر كونت "تعميم المنهج الوضعي وجعله منهجاً كليا عاما وشاملا لكل ظواهر الكون"، إذ إن من استحقاقات ذلك "القضاء على ما تبقى من الفكر الميتافيزيقي ومظاهره، وأن يفهم الأفراد ظواهر الاجتماع اعتماداً على المنهج الوضعي بما في ذلك ظواهر الإنسان والمجتمع التي كانت تستبعد من التحليل الوضعي قبل أوجست كونت". غير أنه لا بد من شرطين لفهم الظواهر على

(١) د. أكرم حجازي مقدمة في النظرية الاجتماعية ص ٧٨، النظرية الاجتماعية التقليدية ص ٣٣ مدارات للأبحاث والنشر الأردن

الطريقة الوضعية.

الشرط الأول في خضوع هذه الظواهر لقوانين معينة حتى "لا تسيرها الأهواء والمصادفات"، وهذا الشرط "متوفر في الظواهر الاجتماعية كون المجتمع جزءاً من الطبيعة الكلية كما أن جميع نواحي الطبيعة خضعت لقوانين ثابتة أمكن الوصول إليها"،

أما الشرط الثاني، فيقوم على "معرفة الناس لقوانين الظواهر وهو أمر لا يتوفر إلا اعتمادا على الدراسة الوضعية عبر باحثين مهمتهم الكشف عنها. وهذه مسألة تتطلب قيام علم جديد، وهو علم الاجتماع. هكذا يمكن القضاء على الفوضى العقلية والاجتماعية والأخلاقية وتحقيق الإصلاح المنشود". (١)

وتتلخص تلك الفلسفة الوضعية فيما يلي:

أ-بوب العلوم تبعا لتدرج مادتها في البساطة والتعميم الرياضيات، فالفلك، فالطبيعة، فالكيمياء، فعلم الأحياء، فعلم الاجتماع، وكل واحد من هذه العلوم يرتكز على نتائج العلوم التي قبله، لذلك فقد كان علم الاجتماع رأس العلوم كلها وذروتها، ولا تبرير لوجود العلوم الأخرى، إلا بمقدار ما تمدنا به من توضيح وشرح لعلم الاجتماع.

فنظر إلى العلوم على أنها إما عملية تطبيقية أو نظرية، أو أنها علوم وضعية ملموسة وأخرى مجردة حيث تهتم الأولى بالظواهر الملموسة وتعالجها بينما الثانية تنشغل باكتشاف القوانين الطبيعية التي تحكم هذه الظواهر وتحدد وجودها وتتابعها.

(١) المرجع السابق ص٣٤-٣٥

وتشكل العلوم النظرية المجردة سلسلة أو سلما تعتمد فيه كل حلقة عليا على الحلقات التي تسبقها، وتحتل الرياضة قاعدة السلم لأنها تهتم بالجوانب المجردة لجميع الظواهر يليها في الترتيب الميكانيكا والتي خلط كونت بينها وبين الفلك ثم الفيزياء والكيمياء فالبيولوجيا وفوق كل ذلك يتربع العلم الجديد أو الفيزياء الاجتماعية أو علم الاجتماع.

يري كونت أن العلم بمعني المعرفة اليقينية قد سار من موضوع إلى آخر على الترتيب السابق، ومن الطبيعي أن تكون ظاهرة الحياة الاجتماعية المعقدة آخر ما يخضع ويستسلم للطريقة العلمية.

ب- أرجع تكون الفكر الإنساني إلى مروره بحالات ثلاث فقد كان الإنسان في أول الأمر ينظر إلى الموضوع من وجهة نظر لاهوتية، ويفسر جميع المسائل تفسيرا إلهيا، ويعتقد بوجود إله ما وراء جميع المسائل التي لا يستطيع فهمها، مثال ذلك عندما اعتبر النجوم آلهة، أو عربات للآلهة، ثم مرحلة الميتافيزيقا التي راح يفسر بها الإنسان الأشياء تفسيرا ميتافيزيقيا مجردا، فاعتقد أن النجوم تسير في دوائر، لأن الدائرة هي أكمل الأشياء، وأخيرا مرحلة العلم الإيجابي أو اليقيني الذي يقوم على الملاحظة الدقيقة، والفروض والتجربة، وأخذ الإنسان يعلل الظواهر عن طريق قانونية العلة والمعلول.

أعلن كونت أن الميتافيزيقا حاجز معطل وموقف للتطور وأن الوقت قد حان للتخلي عن هذه السخافات الصبيانية، وأن الفلسفة لا تختلف عن العلم، إذ هي تنسيق للعلوم كلها بالنظر إلى تحسين الحياة الإنسانية.

ج-وأخيرا غير كونت من تعصبه للمذهب العقلي الذي يبدو في فلسفته الإيجابية ومجد الشعور ووضعه في منزلة أسمي من العقل واعتبره أقوي من العقل كقوة دافعة للإصلاح وذلك على إثر علاقته **بمدام دي فو**.

وعلى إثر ذلك لاحظ أن الدين – أي دين – يمثل أساسًا متينا وضروريا وحاجة ملحة للمجتمعات الإنسانية وللعلاقات الاجتماعية وأنها تمثل ضرورة اجتماعية على الفرد أو الجماعة، كما لاحظ أن الدين يمثل من الجانب السياسي الأساس الذي تقوم عليه سلطة الكهنة والملوك حيث يستمدون سلطاتهم لدى الجماعة من الدين الذي تدين به الجماعة[١].

وانتهي من ذلك إلى أن العالم لا يمكن خلاصه وانتشاله إلا بدين جديد يغذي قلوب الناس محبة الغير الواهنة ويقويها بتمجيد الإنسانية واتخاذها دينا جديدا وموضوعًا للعبادة، وقد أمضي كونت أيام كهولته في ابتكار نظام معقد من القساوسة والطقوس الدينية والصلوات لهذا الدين الجديد، دين الإنسانية واقترح تقويما جديدا استبدل فيه أسماء الآلهة الوثنية وقديسي العصور الوسطي بأبطال الرقي والتقدم الإنساني.

ولقد وجدت هذه الحركة الإيجابية صدي في مجري التفكير الإنجليزي الذي استمد روحه من الحياة الصناعية والتجارية، والذي كان ينظر إلى الحقائق الواقعة نظرة توقير واحترام[٢]

(١) د. غريب أحمد سيد أحمد، المدخل في علم الاجتماع المعاصر، ص١٨-١٩. دار المعرفة الجامعية

(٢) وول ديورانت. قصة الفلسفة ص٤٥٤-٤٥٥ ترجمة فتح الله محمد ط الخامسة ١٩٨٥م

وإذا حاولنا تفصيل القول في المذهب الواقعي فسنجد أنه ينبني علي:

أولا: قانون الحالات الثلاث:

ويرجع وضع ذلك القانون إلى كونت الذي كان قرر أن الاضطراب الخلقي في عصره لا يرجع إلى أسباب سياسية بقدر ما يرجع إلى الاضطراب العقلي وأن هؤلاء الذين يريدون إصلاح المجتمع من الوجهة السياسية دون بحث علمي مسبق يخطئون سبيلهم، لأنه لا يكفي في لقاء مجتمع من المجتمعات أن يوجد نوع من الانسجام العاطفي أو الاشتراك في المصالح بين أفراده، بل لابد من وجود اتفاق عقلي يتحقق بينهم على هيئة مجموعة من العقائد المشتركة. ومعني هذا أنه إذا تحقق الانسجام العقلي في كل نفس فردية على حدة انتقل هذا الانسجام شيئا فشيئا إلى العقول الأخرى، ومتي نفذت الفلسفة العلمية إلى جميع العقول أمكن تحقيق الانسجام الخلقي ولم تعد مشكلة إعادة تنظيم المجتمع بالأمر العسير، وقد فسر لنا "كونت" سبب الاضطراب العقلي في عصره بأن الناس لا يتبعون في التفكير منهجا واحدا يقودهم إلى حقائق يسلم بها الجميع دون جدل او لحجج، بل هم يتبعون ثلاثة مناهج وقد يتبع الواحد منهم جميعها في مسألة بعينها، دون أن يفطن إلى ما بينها من تنافر وتضاد.

وهذه المناهج هي:

_ منهج التفكير اللاهوتي الأسطوري

_و منهج التفكير الميتافيزيقي الخيالي

_و منهج التفكير الوضعي العلمي

وتدل هذه المناهج من الوجهة التاريخية على المراحل التي مرت بها الإنسانية.

فقد كان الناس يفكرون في بادئ أمرهم تفكيرا أسطوريا حقا كان هذا التفكير ينطوي على جرثومة التفكير العلمي الصحيح، غير أن هذه الجرثومة لم تنم إلا شيئا فشيئا، وفي أثناء عصور طويلة ولم يتم الانتقال من المرحلة الأسطورية إلى المرحلة العلمية إلا بعناء وجهد كبيرين. هذا إلى أنه لم يكن من المستطاع أن يتم الانتقال من إحدى المرحلتين إلى الأخرى دفعة واحدة، بل لم يكن بد من أن تتوسط بينهما مرحلة ثالثة هي مرحلة التفكير الميتافزيقي. ولا نستطيع القول بأن التفكير العلمي في العصر الحاضر قد قضي على آثار كل من التفكيرين السابقين. وهذا هو السبب الحقيقي في تلك الفوضى العقلية التي يمتد تأثيرها إلى الأخلاق والسياسة

أما عن **المرحلة الأولي** من التفكير والتي تسمي **المرحلة اللاهوتية**.

وكان عمل العقل فيها البحث عن كنه الكائنات أصلها ومصيرها، وحاول إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك. وقد تدرج في ذلك درجات ثلاث:

كانت الدرجة الأولي "الفيتشية" –التقديس الأعمى–يضيف فيها إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان، وكانت الدرجة الثانية تعدد الآلهة، وهي أكثر الدرجات الثلاث تمييزا للحالة اللاهوتية، يسلب فيها عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع عليها من حياة، ويضيف إلى ذلك موجودات غير منظورة تؤلف عالما علويا، وكانت الدرجة الثالثة التوحيد أي جمع كثرة الآلهة في إله واحد مفارق، وفي هذه الحالة تتسع الشقة ويزداد التضاد بين الأشياء وبين المبدأ الذي تفسر به. وقد

بلغت الحالة اللاهوتية أوجها في المسيحية الكاثوليكية التي تؤلف تأليفا عجيبا التفسيرات الفائقة للطبيعة في فكرة إله واحد مدبر للكل بإرادته. فخصائص الحالة اللاهوتية هي أن موضوعها مطلق، وتفسيراتها فائقة للطبيعة، ومنهجها خيالي. هذا من الوجهة النظرية. أما من الوجهة العلمية فقد كانت المعاني اللاهوتية أساسا متينا مشتركا للحياة الخلقية والاجتماعية، وكانت هذه المرحلة الأولي مرحلة السلطة، سلطة الكهنة وسلطة الملوك.

المرحلة الثانية: المرحلة الميتافيزيقية:

وفيها يرمي العقل إلى استكناه صميم الأشياء وأصلها ومصيرها، ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللا ذاتية توهمها في باطن الأشياء، وما هي إلا معان مجردة جسمها له الخيال فقال: العلة أو القوة الفاعلية والجوهر والماهية والنفس والحرية والغاية وما إليها. والميل الذي ساقه في الحالة السابقة من الفيتشية –التقديس الأعمى– إلى تعدد الآلهة، فإلى التوحيد؛ يسوقه هنا أولا إلى الاعتقاد بقوي بعدد طوائف الظواهر مثل القوة الكيميائية والقوي الحيوية، ثم إلى إرجاع مختلف القوي إلى قوة أولية هي "الطبيعة" لذا تبلغ هذه الحالة أوجها في مذهب وحدة الوجود الذي يجمع في الطبيعة جميع القوي الميتافيزيقية وكل الفرق بينها، أما الملاحظة فثانوية فيها جميعا. والحالة الميتافيزيقية فترة انتقال وأداة انحلال(١).

وهي فترة نقد عقيم ولكنه ضروري، إذ يتناول الاستدلال المعاني اللاهوتية فيبين التناقض فيها، فإذا كان العقل في هذه الحالة يضع معاني أو قوي موضع الإرادات

(١) موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠، الجزء الخامس ص ٢٧٣

المتقلبة، فإنه يضعف من سلطان القوي المفارقة. هذا من الوجهة النظرية.

أما من الوجهة العملية فيبدو الانحلال في انتشار الشك والأنانية، فيفصم الفرد الرباط الذي يربطه بالمجتمع، ويثقف العقل على حساب العاطفة ويتصور الاجتماع ناشئا من تعاقد الأفراد وتقام الدولة على مبدأ سلطة الشعب، ويحكمها القانونيون

وفي الحالة الواقعية يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة، فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها وترتيب القوانين من الخاص إلى العام فتحل هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، ويستعاض عن العلل بالقوانين، أي العلاقات المطردة بين الظواهر.

فيكون موضوع العلم الإجابة عن سؤال "كيف" لا عن سؤال "لم" وتكون الحالة الواقعية مختلفة عن الحالتين الأخريين في العناصر الثلاثة جميعا التي هي الموضوع والتفسير والمنهج، هذه الطريقة هي الذي أفلحت في تكوين العلم ويجب أن يحل العلم الذي تولد عنها محل الفلسفة: فكلما أمكن معالجة مسألة بالملاحظة والاختبار انتقلت هذه المسألة من الفلسفة إلى العلم

واعتبر حلها نهائياً. أما المسائل التي لا تقع تحت الملاحظة فهي خارجة عن دائرة العلم، ويدل تاريخها على أنها لم تتقدم خطوة واحدة منذ أن وضعت، فهو ينطق بأنها غير قابلة للحل، كما أن نجاح العلم الواقعي يقضي بإمكانه وبأنه المجال الحقيقي للعقل. هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فتمتاز الحالة الواقعية بقيام علم الاجتماع.

هذه الحالات الثلاث متنافرة، ونحن نجدها تتعاقب في كل إنسان ففي الحداثة نقنع بسهولة بالتفسيرات اللاهوتية، وفي الشباب نقتضي عللا ذاتية، وفي سن النضج نعول في الأكثر على الوقائع. غير أن هذا التنافر لا يمنع من التقارب: فالشخص الواحد قد يقبل تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية في بعض الموضوعات مع قبوله العلم الواقعي في موضوعات أخري هي على العموم أقل تعقيدا؛ وأهل العصر الواحد بنوع خاص تري بعضهم على حالة وبعضا آخر على حالة أخري، وكذلك شعوب الأرض ليسوا كلهم على درجة واحدة من رقي العقل، على أن القانون الكلي يبقي صادقا إذا اعتبرنا الحالة الغالبة في شعب معين: فإننا حينئذ نري اللاهوت ينجم أولا، ثم نري الميتافيزيقا تعارضه وأخيرا يولد العلم الواقعي الذي هو وحده قادر على البقاء لأن الحالتين السابقتين لما كانتا قائمتين على الخيال كانتا دائما مبعث ظنون جديدة ومناقشات جديدة، على حين أن العلم يستند إلى الواقع فيجمع العقول على وحدة الرأي

ويحل محلهما، لا يتكلف في ذلك محاربتهما بل يتركهما تسقطان من تلقاء ذاتهما.

ولما كانت التجربة محدودة دائما فسيظل دائما كثير من الظواهر خارج علومنا. ولما كانت الظواهر متباينة، فيمتنع رد العلوم بعضها إلى بعض، أو رد كثرة القوانين إلى قانون واحد [1]. بل إن في كل علم فروعا مستقلة، في علم الطبيعة وفي علم النبات وفي علم الحيوان.. فلا يمكن أن تنتهي الحالة الواقعية إلى وحدة مطلقة، كالإله (الله) في الحالة اللاهوتية، وكالطبيعة في الحالة الميتافيزيقية.

(١) د. عبد الحميد لطفى علم الاجتماع ص ٢٨٣-٢٨٩ مكتبة القاهرة الحديثة (بتصرف).

فالفلسفة الواقعية جملة القوانين المكتسبة فعلا بالتجربة، لا جملة قوانين الوجود. غير أننا إذا لم نستطع البلوغ إلى وحدة موضوعية، فبوسعنا أن نبلغ إلى وحدة ذاتية تقوم في تطبيق منهج واحد بعينه في جميع ميادين المعرفة، فتنتهي إلى تجانس النظريات وتوافقها، ومن ثمة إلى علم واحد. فالمنهج الواقعي يحقق الوحدة في عقل الفرد، ويحققها بين عقول الأفراد(١).

وهكذا تصير الفلسفة الواقعية الأساس العقلي للاجتماع. ومن هذه الوجهة تجد في معني الإنسانية المقابل الوحيد لمعني الله ولمعني الطبيعة. وفي الحالة الواقعية الاتصال بين النظر

والعمل أوثق منه في الحالتين الأخريين، إذ إن العلم بقوانين الظواهر يسمح بإيجاد الظواهر، بل إن الرغبة في هذا الإيجاد سبب يجعلنا ننتقل إلى هذه الحالة " العلم لأجل التوقع وبقصد التدبير" ذلك شعار العلم الواقعي. لذا يقابل هذه الحالة الصناعة من جهة كونها عبارة عن استغلال الإنسان للطبيعة، وعلم الاجتماع من جهة أخري لكونه يكشف لنا عن وسائل التقدم. ولئن كانت الفلسفة الواقعية في غني عن التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية، إلا أنها لا تعارضها معارضة مباشرة، بل إنها تعترف باستحالة التدليل على وجودها، وبذا تفترق عن المذهب الحسي المعروف أو المذهب المادي الذي ينكر الروح والغيب إنكارا تاما ويدلل عليه، وقد اختلف بعض تلاميذ كونت معه حيث كانوا يعتنقون المذهب المادي. الذي ينكر الوحي تماما.

(١) يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣١٧-٣٢٠ (بتصرف).

وهكذا استأصل المذهب الواقعي فكرة المطلق وأراد أن يقضي على اللاهوت والميتافيزيقيا على السواء ويحل محلهما الواقعية التي لا تعترف بيقين للمعرفة إلا إذا كانت آتية عن طريق التجربة وهذا المنطق يؤدي حتما إلى أن ما وراء الطبيعة والمعرفة الآتية عنه ليس لها صفة اليقين. وعلى هذا الأساس يكون الدين الذي هو وحي من كائن وراء الطبيعة ليس له صفة اليقين، فإذاً يجب إبعاد اللاهوت والفلسفة الميتافيزيقية عن توجيه الإنسان وإحلال الفلسفة الواقعية محلهما في رسم منهج للإنسان يسير عليه حتى يحصل السعادة، وأن الهدف الذي يجب أن يصل إليه الإنسان ويضحي بفرديته من أجله هو الإنسانية، وهي في المذهب الواقعي تقوم مقام اللاهوت[1].

(١) د. محمود عتمان الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص٨٨.

تصنيف العلوم

في تصنيفه للعلوم أبدى كونت نوعا من التعصب لهذا العلم الجديد فوضعه على رأس سلسلة من العلوم من ناحية الأهمية والتعقيد، فقد قسم العلوم حسب درجة التعقيد والحداثة، والأهمية ودرجة العموم.

١) علم الرياضة

٢) علم الفلك

٣) علم الطبيعة

٤) علم الكيمياء

٥) علم الحياة

٦) علم الاجتماع

وقد اقتصر في هذا التصنيف على ما أسماه العلوم الأساسية النظرية التي تستهدف التوصل إلى القوانين الوضعية التي تحكم الظواهر، وتسير هذه السلسلة من الأعم والأبسط إلى الأخص والمركب، ومن أشدها تجريدا نحو أكثرها التصاقا بشئون الإنسان.

ويعتمد كل علم على ما قبله وفى هذا الاطار تبرز قيمة وأهمية وصعوبة علم الاجتماع من حيث هو أعقد العلوم ومن حيث اعتماده على كافة العلوم السابقة[١]

(١) حاتم سعيد سلسلة رواد علم الاجتماع أوجست كونت نشر منتديات المنشاوي للدراسات والبحوث http: //www. minshawi. com/vb/showthread. php?t=7738

ونلاحظ أن **كونت** حينما بدأ في تصنيف العلوم لم يبحث عن المبدأ الذي يمكن استخدامه في تنظيم جميع العلوم تبعا لترتيب ما بحيث يمكن أن تلاحظ فيه علاقاتها من جهة توقف بعضها على بعض، وقد بدأ بحذف أكبر عدد منها كالعلوم التطبيقية عملية كانت أو فنية، كما أغفل العلوم التي تعالج المسائل الجزئية الخاصة كعلم الحيوان والمعادن والجغرافيا، ولم يبحث سوي في العلوم النظرية المجردة والتي يمكن من خلالها معرفة القوانين ودراسة الظواهر.

وعلى هذا الأساس يتم التدرج العام للعلوم الأساسية كما أطلق عليها.

من درجة العموم التي تنقص شيئا فشيئا، أو من درجة التعقيد التي تزداد شيئا فشيئا فتأتي العلوم الرياضية أولا، ثم يأتي بعدها كل من، علم الفلك، وعلم الطبيعة، وعلم الكيمياء، وعلم وظائف الأعضاء أو علم الحياة، وعلم الطبيعة الاجتماعية، أو علم الاجتماع.

فالعلم الأول يفحص أشد الظواهر عموما وأقلها تركيبا وأشدها تجريدا وأكثرها بعدا عن الإنسانية وتؤثر هذه الظواهر في جميع الظواهر الأخرى دون أن تتأثر بها. أما الظواهر التي يدرسها العلم الأخير وهو علم الاجتماع فهي أشد الظواهر خصوصا وأكثرها تركيبا وأشدها اهتماما بالأمور الحسية، وهي أكثرها أهمية من الوجهة المباشرة الإنسانية، وهي تتوقف إن قليلا أو كثيرا على جميع الظواهر السابقة لها. وبين هذين الطرفين الأقصيين تزداد درجة الخصوص والتركيب والطابع الشخصي شيئا فشيئا[1]

(١) ليفي بريل. فلسفة أوجست كونت ص٦٤-٦٨.

علم الاجتماع

يعتبر علم الاجتماع هو أرقي العلوم في الفلسفة الوضعية وهو قمة العلوم، وإذا كانت العلوم السابقة كلها تقوم على التجربة والملاحظة، وكذلك لها قوانينها التي لا تحيد عنها وتسير وفق منهجها فإن علم الاجتماع وهو قمة هذه العلوم _ هو الأجدر بأن يسير وفق القوانين الوضعية. ومن ثم يجب القضاء على الطريقة الدينية الميتافيزيقية في التفكير وتفسير الظواهر الاجتماعية وحتى يتم ذلك.

فلا بد أن تكون الظواهر خاضعة لقوانين عامة لا حسب الأهواء والمصادفات، كما انه لا بد أن يتعرف الناس على هذه القوانين من خلال كشف الباحثين عنها وتعريف الناس بها. وعلى هذا فيجب دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية منظمة.

وحتى يتم ذلك قام **كونت** بوضع النظريات العامة ثم حاول أن يفسر على ضوئها حقائق الاجتماع.

ذهب **كونت** إلى أن علم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية في حالة ثباتها وتطورها أي في حاله توازنها وتغيرها وهو ما أطلق عليه الاستقرار الاجتماعي أو

(الاستاتيكا الاجتماعية)، والحركة أو التغيير الاجتماعي(الديناميكا الاجتماعية)، وهو لم يذهب إلى وجود علمين مستقلين أحدهما يدرس الاستقرار والآخر يدرس الحركة الاجتماعية، وإنما جعلهما موضوعا متوحدا لعلم الاجتماع، وهو عدم إمكان الفصل بينهما إلا على المستوي التحليلي لغرض الدراسة؛ حيث نفترض الثبات في الحالة الأولى والتطور في الحالة الثانية مع أن المجتمع في تطور

مستمر

ثم أرجع **كونت** تطور الظواهر الاجتماعية إلى تطور التفكير، مع أن تطور التفكير ذاته ليس إلا مظهرا من مظاهر تطور المجتمع ولا يعتبر هو نفسه سببا لهذا التطور.

كما أن **كونت** وضع قانونا يسري على جميع المجتمعات بلا استثناء، مع أن الملاحظ هو وجود مجتمعات جزئية تختلف عن بعضها في بنيانها او أنظمتها وطبيعتها.

ولما كان منهج **"كونت"** التاريخي قائما على هذه القوانين والنظريات التي لا تعتبر أكثر من فروض فلسفية فإن ذلك يقلل من قيمة ذلك المنهج وأهميته

"و قد أثر **كونت** في توجيه الدراسات الاجتماعية من بعده تأثيرا كبيرا، وسار على هدي طريقته عدد كبير من المفكرين الاجتماعيين، فكانوا يبدؤون بوضع القوانين والنظريات العامة ثم يحاولون تطبيقها على ظواهر الاجتماع.

ومن بين هؤلاء أنصار المدرسة البيولوچية الذين حاولوا تفسير الظواهر الاجتماعية على ضوء القوانين التي تسير عليها[1] الظواهر البيولوجية وغيرهم من الذين وضعوا نظريات في الصراع الاجتماعي، وحاولوا أن يستخلصوا أسس الاجتماع الإنساني من مبادئ تنازع البقاء وصراع الأجناس وبقاء الأصلح وما إليها.

ومن بين الذين ساروا على هدي طريقة "كونت" أنصار المدرسة الجغرافية الذين

(١) د. عبد الحميد لطفى علم الاجتماع ص ٢٨٥-٢٨٩ مكتبة القاهرة الحديثة(**بتصرف**).

حاولوا تفسير كل ما يحدث في المجتمع بالرجوع إلى الظواهر الجغرافية والإصرار على تطبيق المنهج الوضعي في كل مجالات المعرفة حتى العلوم الإنسانية وفيها علم الاجتماع جعل من الممكن وصف علماء الاجتماع بأن معظمهم أو كلهم من أشهر الجاحدين في عصرنا...

خاصة من يذهبون إلى أن فكرة الألوهية هي عين فكرة المجتمع محولة إلى خارج ومنصوبة ماهية عليا بما له من سلطان قاهر وأثر بالغ يحس في الاجتماعات، وبخاصة بمناسبة الأعياد والمراسم والأحداث القومية حيث تهزه روح من العزة والشجاعة والحماسة ترفعه فوق مستواه المألوف.

وهكذا حاول **كونت** وأنصاره من بعده أن يتصوروا المجتمع تصورا فيزيقيا ويطبقوا عليه المناهج العلمية البحتة. معتقدين أن ظواهر المجتمع مثل ظواهر الطبيعة يمكن إخضاعها للتجربة والملاحظة وقد نجم عن هذه الطريقة عدة مشكلات من بينها:

_ أن الظاهرة الطبيعية بسيطة يمكن ضبطها وعزلها وقياسها.

أما الظاهرة الاجتماعية فهي معقدة ولا يمكن ضبطها أو التحكم فيها.

_كما أن الظاهرة الطبيعية تمتاز بالتواتر والتكرار والموضوعية، أما الظاهرة الاجتماعية فهي تتميز باللا موضوعية حيث إنها لا تقاس كميا بل كيفيا

الأولي ظاهرة مادية تطبق عليها مناهج الكم، والثانية لا مادية تطبق عليها مناهج كيفية.

كما أن الظاهرة الاجتماعية لا يمكن تحديدها ولذا لا يمكن قياسها.

ولذا يستحيل دراسة الظواهر الاجتماعية باتباع قواعد المنهج العلمي، وذلك لاستحالة إجراء التجارب في الدراسات الاجتماعية وبالتالي تعذر الوصول إلى قوانين اجتماعية، ويصعب على ذلك تطبيق المناهج العلمية التي وضعها الواقعيون على علم الاجتماع وإلى الآن لم يصل أيٌ ممن تبنوا هذه الأفكار والفلسفات إلى نتائج علمية صحيحة في هذا المجال تحديداً

أهم ما وقع فيه كونت وكل من تابعه ونشر فلسفته من أخطاء

أولا: أن كونت لم يدرس المجتمعات البشرية كلها، بل ولا الكثرة منها، بل اكتفى بدراسة أحوال المجتمعات الغربية، وبخاصة المجتمع الفرنسي في زمانه، الذي كان يشيع فيه الإلحاد والمادية، فوضع نظريته بناء على دراسته هذا المجتمع، وطبق نظريته على المجتمعات الإنسانية جميعها، ظانا أنها كلها صورة للمجتمع الذي درسه. وهذا خطأ فاحش، ومنهج فاسد أدى إلى فساد النظرية

ثانيا: أن أوجست كونت كما اقتصر على دراسة مجتمع واحد ثم عممه على جميع المجتمعات، كذلك اقتصر على دراسة فترة زمنية معينة، وظن أن ما يجري في هذه الفترة الزمنية هو المقياس والمثال لجميع ما يجد من عصور وظروف وملابسات، وأن ما عاصره من ظواهر اجتماعية في بلده ومجتمعه وفي نهاية الفترة سوف يكون هو بعينه في كل الأزمان والعصور التي تجد حتى نهاية الدنيا. ولكن لو طال به العمر بضعة عقود فقط لرأى وعاش فشل جميع آرائه ونظرياته[1].

(١) د محمود عتمان الفكر المادي الحديث ص ٩٠-٩٥ (بتصرف).

الأخلاق:

يري كونت أن قوانا الثلاث العقلية والعملية والعاطفية هي التي تسير بنا من حالة إلى أخري نحو التقدم.

وأن علم الأخلاق يكمن في القانون العاطفة الذي يمضي بنا من الأنانية إلى شيء من الغيرية، التي تتقدم شيئا فشيئا حتى تسود سيادة تامة فالفرد يتحد في الأسرة ويقدمها على نفسه،

والأسرة تتحد في غيرها لأجل الحرب، ثم يتحد الجميع ويفصل مصلحة المجتمع العامة لأجل ازدهار الصناعة.

وجعل شعار علم الأخلاق " الحياة لأجل الغير " وحاول من خلال فلسفته في علم الأخلاق أن يمحو فكرة "الحق" الراجعة إلى أصل لاهوتي من حيث إنها تفترض سلطة أعلى من الإنسان، وحصر الأخلاق كلها في فكرة "الواجب" الذي يستطيع من خلاله أن يجعل النوع البشري ينزع إلى صالحه.

ففكرة الواجب آتية من الروح الاجتماعي الذي تحققه الفلسفة الواقعية إذ تبين الفرد عضوا من أعضاء النوع وتستنبط قوانين سيرته من النظام الكلي للأشياء لا من مصلحته الخاصة فحسب وأرفع المعاني في ميدان الأخلاق معني الإنسانية بما هي كذلك أي الإنسانية التي يتوقف تقدمها على تضافر الأفراد والجماعات[1]

ويري د/ محمود عتمان أن علم الأخلاق الواقعي كما وصفه **كونت** ومناصروه لم

(١) يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٢٦.

يحرز أي نجاح في مجال الأخلاق.

حتى التعديلات التي وضعها مناصروه لكي يخلصه من إشكالاته ثبت تهافته. ولم يقف أمام المناقشة القيمة التي أجراها له[1]

الديانة الإنسانية:

قام أوجست كونت يطبق فلسفته الوضعية على الدين وذلك في محاولة منه لمحاربة التسلط الكنسي الذي مارسه القساوسة والباباوات في العصور الوسطي؛

فكان أن استبدل الديانة الإنسانية بالديانة المسيحية والكائن الأعظم بفكرة الألوهية وهو الإنسانية، وقام بنزع السلطة من يد الكهنة فوضعها في يد الفلاسفة بل نصب من نفسه كاهن أعظم للديانة الإنسانية الجديدة.

وحاول أن يتخلص من الفرائض والواجبات والطقوس فغرق فيها إلى أذنيه بما فرض من طقوس وعبادات جديدة.

ويري أن جميع الناس هم أطفال للإنسانية وبعضهم يساهم بشكل فعال في خدمة (الكائن الأعظم) (الإنسانية) ورقيه وتقدمه وهؤلاء يستحقون أن يخلد ذكرهم بأن يكونوا جزءاً من الكائن الأعظم، لأنهم استطاعوا أن يجعلوا الذكاء يتفوق بداخلهم على ميول العاطفة والغرائز البهيمية، واستطاعوا أن يسموا بالغيرية داخلهم على الأنانية، هؤلاء الذين عاشوا للإنسانية سيخلدون إلى الأبد في الإنسانية بعد أن يطهرهم الموت من الجسد، فيخلدوا في نفوس الأخرين، وذلك

(١) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص ١٠١-١٠٢.

بنشر فكرهم وإلهامهم للأحياء المنتشرين في أنحاء متفرقة من الأرض وإقامة تماثيل لهم تخلد ذكراهم وتجعل منهم قدوة يحتذي بهم.

أما الأفراد الذين يعيشون لأنفسهم وأنانيتهم ولا يقدمون للإنسانية شيئا فهم يمثلون عبئا على النوع البشري ولا يصح أبدا أن يكونوا جزءاً من الكائن الأعظم وهؤلاء قد أضاعوا حياتهم لأن الموت يطوي ذكراه ولا يكون له بقاء بعد ذلك[1]

أما العبادة لهذا "الكائن الأعظم" فهي عبادة فردية ومشتركة فأما العبادة الفردية فتتبلور في اتخاذ الأشخاص الأعزاء كنماذج للمثل الأعلى في توجيه جميع أفكار الفرد وأفعاله إلى صيانة الموجود الأعظم وهو الإنسانية، وإبلاغه حد الكمال باعتبار أن كرامة الفرد تتحقق في كونه جزءا من هذا الموجود الأعظم، وهكذا تنطوي الغيرية على الواجب الأعظم، وعلى السعادة العظمي جميعا.

وأما العبادة المشتركة فتتبلور في تكريم المحسنين إلى الإنسانية في أعياد، ووضع "كونت" تقويما واقعيا وسمي فيه كل الأيام والشهور بأسماء الرجال الذين أسهموا بنصيب وافر في تقدم الإنسانية[2].

وعبادة الإنسانية لها كهنتها وهم: فلاسفة، شعراء، أطباء معا، ويكونون هيئة إكليريكية ومهمتهم: استكشاف الطريق الذي يكفل خير الإنسانية، والعمل على تحقيق ما حققته الكنيسة في العصور الوسطي أو أرادت تحقيقه ".

"ولما كانت الواقعية " قد تحررت من الأوهام القديمة فلا بأس عليها أن تعود

(١) ليفي بريل فلسفة اوجست كونت ص٣٤٨-٣٥١.

(٢) د. محمود مزروعة مذاهب فكرية معاصرة - عرض ونقد -، ص ٢٣١-٢٥٥ **(بتصرف)**.

إلى التصور الفيتشي للطبيعة فتضيف إلى الأشياء نفساً وحياة، وهذه الإضافة مصدر قوة للغة والفن وكل ما من شأنه أن يفيد في بقاء "الموجود الأعظم" ونمائه، وتعتبر السماء أو الهواء "الوسط الأعظم" الذي تكونت فيه الأرض التي هي "الفيتش الأعظم" فيؤلفان مع "الموجود الأعظم" الثالوث الواقعي.

ويعد الفلاسفة الذي هم بمثابة الدماغ من الجسم، ثم يأتي النساء وهم بمثابة أعضاء العاطفة، وواجبهن إثارة عواطف الحنان والغيرية الكفيلة باستكمال "الموجود الأعظم" وبعدهن يجئ رجال الصناعة والمال وهم بمثابة أعضاء التغذية وأخيرا يجئ العمال وهم بمثابة أعضاء الحركة[1].

تلك هي ديانة الإنسانية التي مسخ بها كونت الديانة المسيحية ونصب نفسه كاهنها الأكبر ووضع لها شعاراً: المحبة كمبدأ، والنظام كأساس، والتقدم كغاية، فكان له بعض الأشياع في فرنسا وإنجلترا والسويد وأمريكا الشمالية والجنوبية، تبعوا في كل بلد كاهنا أكبر وأقاموا معابد "

ويري د/ محمود عتمان أن هذا الانتشار لهذه الديانة كان له خطورة كبيرة تمثل في أن الأمريكان تلقوا هذا المذهب الإنساني وجعلوه اتجاها دينيا في نسق ديانة الإنسانية.

وصيغ المذهب الإنساني في أمريكا في "بيان الإنسانيين" ونشر في سنة ١٩٣٣ وأمضاه كثيرون وتضمن البيان نقطا كثيرة ذكر منها:

(١) د. محمود مزروعة مذاهب فكرية معاصرة - عرض ونقد -، ص ٢٣١-٢٥٥

١ - الكون موجود بذاته وليس مخلوقا.

٢ - الإنسان جزء من الطبيعة وهو نتيجة عمليات مستمرة فيها

٣- لا ثنائية بين العقل والبدن، وأن النظرة العضوية إلى الحياة نظرة صادقة..

٤ - ثقافة الإنسان الدينية ليست إلا إنتاج التطور التدريجي الناشئ من التفاعل بين الإنسان والهيئة الطبيعية والوراثة الاجتماعية.

٥ - لا تقبل طبيعة الكون أي ضامن فائق على الطبيعة للقيم الإنسانية.

٦ -لقد ولي الزمن الذي كان يعتقد الناس فيه بالدين وباللّٰه.

٧- يتركب الدين من الأفعال والتجارب والأهداف التي لها دلالات في نظر الإنسان، ومن هنا زال التميز بين المقدس والمادي.

٨ - أن التحقيق التام للشخصية الإنسانية هدف الإنسان.

٩ - يعبر عن الانفعالات الدينية بالإحساسات الشخصية والجهود الجماعية التي تحقق الرفاهية الاجتماعية.

١٠ - لا توجد إذن انفعالات دينية ومواقف للناس تربطهم بوجود خارق للطبيعة[١]

(١) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص ١٠٥-١٠٦.

خاتمة البحث

بعد أن عرضنا الفلسفة الوضعية اتضح لنا أن التسلط الكنسي وإرهاب العقول والحجر عليها في العصور الوسطي والذي مارسه القساوسة بشكل رهيب ومرعب كان عاملا أساسيا جعل كثيرا من الفلاسفة والعلماء والمفكرين يحاولون التخلص من هذا التسلط إلى الأبد والإلقاء به في غياهب النسيان.

إلا أن ذلك لم يكن وحده السبب لاتخاذ المذاهب المادية والوضعية بديلا للديانة المسيحية.

ذلك أننا سبق وذكرنا أيضا العامل اليهودي الصهيوني الذي حاول أن يتخلص من الكنيسة التي كانت تحجر عليه وتمنعه من الوصول إلى المراكز القيادية وتحكر عليه الأعمال الوضيعة.

إلا أن اليهود شأنهم دائما لا يكتفون بما يصلون إليه ولا يقنعون أبدا بما في أيديهم ولكن دائما ما يتطلعون إلى مزيد من السيطرة والتحكم.

وقد استغل اليهود ارتباط المسيحية بها واعتمادهم على العهد القديم وانصهر العنصر اليهودي داخل الفكر الغربي في محاولة منه أن يكون جزءا منه إلى أن يصبح هو الجزء المحرك له في الفكر والعمل، فتسلطوا وتحكموا في وسائل الإعلام ووسائل النشر سواء الكتب أو الصحف. حتى يتسنى لهم نشر ما تصبوا إليه أنفسهم فكان أن نشروا مبدأ حرية الفكر،

والإيمان بالمحسوس وإنكار الغيبيات والسخرية منها، واحتقروا الأخلاق والقيم وكل ما يمت للدين بصلة، كما نشروا نظرية التطور التي تهدم الأسس التي قامت

عليها الأديان الثلاثة، وكذلك نظرية النسبية التي تحمل على التغير الدائم.

ومن هنا قامت الصهيونية بعدة محاولات للسيطرة على الفكر الأوربي وتوجيهه الوجهة التي توافق النظريات والأيدولوجيات التلمودية. ومن ثم يتسنى لهم أن يعبروا من خلال ذلك؛ للسيطرة على العالم أجمع وتوجيه فكر الأمم لتحقيق أطماع الصهيونية العالمية في إقامة مملكة يهوذا الكبرى، وقام اليهود بنشر النظريات والفلسفات التي تعلى من شأن العقل والعلم والإنسانية، وتقلل من شأن الدين والأخلاق والقيم الروحية.

وأصبحت الموجة السائدة في الدول الأوربية هي التحلل من القيم الدينية، وأصبح عمل وسائل الإعلام التي تتحكم فيها فئة صهيونية هو نشر ذلك الفكر وهذا التحلل إلى المجتمعات الإسلامية عن طريق السينما والتلفزيون والإنترنت.

وهم يشيعون النظرية الوضعية باعتبارها تعلى من شأن الإنسانية وتهتم بها ثم يكون تركيزهم في الإعلاء من شأن الغرائز الإنسانية والعواطف والأهواء البشرية. وهو ما يخالف أصل النظرية تماما. وما كانت تدعو إليه من تمجيد للعقل وتحقير للجنس، والغرائز والعواطف.

وسلط الماسون الصهاينة الأضواء على إقصاء الدين من مجال التأثير الاجتماعي، وعلى القول بأن الدين مرحلة في حياة الأمم قد تجاوزتها بفضل العلم ومعطيات العقل البشري ولذا ارتقت وتقدمت، ثم هم يحاولون نشر هذا الفكر في الأفق الإسلامي، متجاهلين الهوة الواسعة بين علماء الدين المسلمين وكهنة العصور الوسطي. وغاضين الطرف عن الفرق الكبير بين نظرة الإسلام للعلم ونظرة الكهنة المسيحيين له. ذلك أن الإسلام لم يعارض

البحث العلمي بل على العكس من ذلك فإن الإسلام هو الذي فتح للمسلمين آفاق البحث وشجع العلماء على البحث في كل مجالات العلوم، كما أن فكرة أوجست كونت الوضعية عن الدين وأنه كان مرحلة في حياة الأمم انتهت وقد سبقتها مراحل من الوثنية وتبعتها مراحل من العلم. هي فكرة قاصرة. وناتجة عن الصراع الذي قام في أوربا بين الدين والعلم.

وهذه الفكرة ربما أراد بها أوجست كونت أن يصور الفكر الغربي على أنه الفكر البشري كله وهو ما ليس صحيحا كما سبق وأوضحنا. وأن هذا الاستعلاء لا يكشف الحقيقة، بل يحجبها، وأن هناك أمما كثيرة وعقائد كثيرة وحضارات متعددة، غير الأمة الأوربية والفكر الأوربي والحضارة الأوربية لها أثرها العميق في الفكر البشري.

والدين لا يموت لأنه غريزة أصيلة كامنة في الإنسان.

وإذا كانت الفلسفة الوضعية تنكر عالم الغيب كله وتقف عند عالم الظاهر المحسوس فهي مما لا يمكن تقبله في العالم الإسلامي ذلك أن الإسلام ينبني على اليقين الكامن في وجود عالم الغيب والشهادة وما يحتويها ويقوم عليهما وهو مفهوم الألوهية والوحي والنبوة والرسالة واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ومن هنا فالدين الإسلامي تقوم فيه الحياة بالدين ويترتب على الحياة الإنسانية وجود آخر له قيمة أعلى يعمل الإنسان على تحقيقها ونيل شرفها وهي الفوز بالنعيم في الآخرة، فالفكرة الإسلامية تختلف تماما مع النظرية الوضعية وتتنافي معها تماما.

أما من جهة البحث العلمي. فإن الفكر الإسلامي يؤمن بأن المنهج العلمي هو

القائم على الملاحظة والاستقراء، وبأن لكل علم منهجه، وبأن للإنسان منهجا علميا يختلف عن المنهج التجريبي المطبق على الجماد والحيوان، وبأن المنهج العلمي غير المنهج التجريبي وأنه ليس بالضرورة أن يكون ماديا، بل هو جامع متكامل، وفي ضوء هذا المفهوم نجد أن الفكر الغربي يقيم منهجا علميا آخر مخالفا لهذه الأصول، يجعل من المنطلق المادي أساسا ويسوي بين الإنسان والجماد والحيوان في الخضوع لمنهج واحد فإذا تجاوز عن ذلك أخضع العواطف والمشاعر والعوامل الروحية والدينية والنفسية إلى التفسير المادي الخالص.

هذا الخلاف هو أعمق الخطر في تطبيق المنهج العلمي الوافد على الفكر الإسلامي والثقافة والأدب العربيين، هذا فضلا عن أن المسلمين الذين استمدوا المنهج التجريبي من القرآن الكريم والسنة الشريفة وأصبحوا على أساسه أقوي أمة حكمت العالم وأقامت العلم فيه لا يمكن أن نستبدله بهذا العلم الواهي الذي ليس له أساس متين يقوم عليه.

ومن هنا يجب علينا التحذير من نشر هذه الأفكار والفلسفات الهدامة باسم التغيير، واللحاق بركب التقدم وبناء الوطن، وما يشبه ذلك من شعارات تستخدم لدس السم في العسل والتغرير بالشباب المتعطش للحياة والتقدم والذي بعدت به وسائل الإعلام والتعليم الحديثة عن منهجه الإسلامي وعقيدته النقية القوية

أسأل الله أن يحفظ أمتنا وشبابنا من مكر الماكرين ويردهم لدينه القويم ردا جميلا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١. البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية شارلين هس-بيبر، وباتريشيا ليفي، ، ترجمة هناء الجوهري، القاهرة: المركز القومي للترجمة.

٢. نماذج من الفكر المعاصر: سعد عبد العزيز حباتر، ، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠١١م.

٣. موسوعة أكسفورد في علم الاجتماع، تحرير جوردن مارشال.المجلس الأعلى للثقافة (مصر) ترجمة في ٣ أجزاء المشروع القومي للترجمة.

٤. سيدني دارك النهضة الأوربية ترجمة وتعليق محمد بدران مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١.

٥. تاريخ الفلسفة الغربية برتراند راسل ترجمة زكي نجيب محمود.

٦. الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه د. محمود عتمان مكتبة الأنجلو المصرية.

٧. العلمانية بين الغرب والإسلام د. محمد عمارة دار الوفاء ١٤١٧ ط الأولي.

٨. العلمانية نشأتها وتطورها سفر بن عبد الرحمن الحوالي الأولى مكة ١٩٨٢م.

٩. معجم الفلاسفة جورج الطرابيشي ط ٣ دار الطليعة بيروت ١٩٨٧م .

١٠. محاولة لبناء منهج إسلامي طابع الإسلام والأيدولوجيات متكامل أنور الجندي دار الأنصار ١٩٨٦م .

١١. الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه د. محمود عتمان..

١٢. الحضارة والعلوم أنور الجندي دار الأنصار مصر ١٩٨٩م.

١٣. شمس العرب تسطع على الغرب زيجريد هونكه. دار الآفاق بيروت ط التاسعة ١٩٩١م.

١٤. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د. محمد البهي.

١٥. تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ، ط٦ دار المعارف ١٩٧٩

١٦. القاموس الاقتصادي حسن النجفي – ، مطبعة الإدارة المحلية – بغداد – ١٩٧٧م،

١٧. الموسوعة العربية الميسرة فوريبه، شارل ، إشراف محمد شفيق ١٩٦٥.

١٨. فلسفة أوجست كونت ليفي بريل: ترجمة وتقديم تيمور قاسم، السيد محمد بدوي ط ٢ مكتبة الأنجلو المصرية.

١٩. موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠.

٢٠. مقدمة في النظرية الاجتماعية د. أكرم حجازي.

٢١. النظرية الاجتماعية التقليدية مدارات للأبحاث والنشر الأردن.

٢٢. وول ديورانت. قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد ط الخامسة ١٩٨٥م

٢٣. المدخل في علم الاجتماع المعاصر غريب أحمد سيد أحمد،.

٢٤. موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠

٢٥. علم الاجتماع. عبد الحميد لطفى مكتبة القاهرة الحديثة

٢٦. مذاهب فكرية معاصرة – عرض ونقد د. محمود مزروعة

٢٧. مواقع الإنترنت:

٢٨. http: //www. minshawi. com /vb /showthread. php?t=7738

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الملخص	٦٤٧
تمهيد	٦٥١
التعريف بالفلسفة الوضعية	٦٥٤
منهج الفلسفة الوضعية	٦٥٥
جذور الفلسفة الوضعية	٦٥٦
أسباب وملابسات ظهور الفلسفة الوضعية	٦٥٧
مرحلة انتقال	٦٦٨
ظهور المذهب الوضعي	٦٧٤
أوغست كونت فيلسوف الوضعية	٦٧٧
الفلسفة الوضعية	٦٨١
تصنيف العلوم	٦٩٤
علم الاجتماع	٦٩٦
الأخلاق	٧٠٠
الديانة الإنسانية	٧٠١
خاتمة البحث	٧٠٥
المصادر والمراجع	٧٠٩
الفهرس	٧١١